

لأم العرب

٩٩

عبدالرحمن الكواكبي

تأليف: دكتور محمد عبدالرحمن برج

المطبعة
المصرية
العامه
الكتاب

أعلام العرب

عبد الرحمن الكواكبي

تأليف: دكتور محمد عبد الرحمن بروج

الهيئة المصرية العامة للكتاب
دار التأليف والنشر

١٩٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ما أظن ان التاريخ العربى الحديث سيغفل فى يوم من الأيام
عن ذكر الثائر العربى العملاق عبد الرحمن الكواكبي . وما أظن أنه
سيبخل أن يوسع له فى صفحاته أكبر نصيب وأوفى مساحة ، بل
ما أظن أن أمتنا العربية ستتنسى فضل هذا العلامة الكبير عليها .

لقد آمن بأمته وبحقها فى الحرية والاستقلال وبأنها جديرة أن
تتبوأ المكانة التى اختصها الله بها دون سائر الأمم فكانت خير أمة
أخرجت للناس .

انطلقت صيحة الكواكبي فى وقت ران اليأس فيه على النفوس
وخيم الاستسلام على القلوب ، فأخذ يبعث الهمة ويذكر بالأمجاد
والمفاخر . يذكر أبناء هذه الأمة أنهم أعرق الأمم اتباعا لأصول تساوى
الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئات الاجتماعية وأنهم أفضل الأقوام
لأن يكونوا مرجعا فى الدين وقوة للمسلمين لأن الرسالة السماوية
نزلت فيهم . ولذلك فانه اذا ما أريد اختيار خليفة للمسلمين يرعى
شئون دينهم ويسهر على حماية شريعتهم ، ينبغى أن يكون هذا

الخلافة عربيا قرشيا كسابق العهد عندما كان الأمر بيد العرب والخلافة الاسلامية منحصرة فيهم . فلما خرجت منهم اعوج أمر هذا الدين وتدهور شأنه لأن الأمر صار الى غير أهله .

على ان الفضل الكبير الذي تدين به الأمة العربية للكواكبي أنه نظر اليها نظرة الطبيب الى المريض فأخذ يفتش عن مواطن الداء يبغى استئصاله ويقر العلاج الحاسم اللازم له ويجوب أنحاء الوطن العربي يستقصي وينقب ويسأل ويبحث حتى يكون ما يقرره من علاج لهذا الانحطاط الذي ران على أمتة علاجاً شافياً ناجحاً .

ولقد شهدت الأمة العربية عدداً من دعاة الإصلاح قبل الكواكبي وبعده ، لكن انشأ الذي بز به هذا المصلح العظيم أقرانه الآخرين أنه أحسن تشخيص الداء فأحسن ذكر الدواء . جاءت كتابته كتابة باحث علمي عملي يحلل ويذكر الاعراض ويصف الداء وسببه والعلاج الناجع له . فهو لا يرجع أسباب انحطاط الأمة العربية الى جانب واحد أو الى شيء معين ، لكنه يرجعه الى أسباب عدة ومنازع شتى ثم هو يجمله في أسباب دينية وأخرى سياسية وغيرها أخلاقية . يتصدر الأسباب الدينية موقف بعض العلماء من ديننا الحنيف السمج ، هؤلاء الذين أدخلوا على الدين ما ليس فيه وما لم يدع به نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلم يعد بسيطاً كما كان إنما أصبح التشديد والتعصب سماته والخرافات والبدع مظاهره .

كذلك يرجع الأسباب السياسية الى الاستبداد الذي فرض على أبناء هذه الأمة فحرّمهم حرية القول والعمل وأفقدتهم الأمن والأمل . أما الأسباب الأخلاقية فأفاض فيها الكواكبي وبسط وأطال وكان صريحاً عنيفاً في وقوفه في وجه أولئك اليائسين المتشككين المشككين في مقدرة هذه الأمة رغم عظم قدراتها . فهو يقول على لسان رئيس جمعية أم القرى التي تخيل عقدها في مكة للبحث والتشهاد في

شئون المسمين * ينبغي أيها السادات أن لا يهولنا ما ينبسط في
جمعيتنا من تفاقم أسباب الضعف والفتور كيلا نياس من روح الله
وأن لا نتوهم الإصابة في قول من قال ان أمتنا ميتة فلا ترجى في
حياتنا ، كما لا إصابة في قول من قال اذا نزل الضعف في دولة أو
أمة لا يرتفع . فهذه الرومان واليونان والأمريكان والطيان واليابان
وغيرها كلها أم أمثالنا استرجعت نشأتها بعد تمام الضعف وفقد كل
اللوازم الأدبية للحياة السياسية ؛ ثم هو يحمل في شدة على هؤلاء
الدعاة بأقوال كانت السبب في استسلام الكثيرين وعجزهم عن
تغيير أحوالهم بقولهم ان المسلم مصاب وأن الله اذا أحب عبدا
ابتلاه ، وان أكثر أهل الجنة البله أو قولهم حسب ابن آدم لقيمات
يقمن صلبه الى آخر هذه الأقوال .

ويرى الكواكبي ان الأمة العربية أحوج ما تكون لشبابها رجال
المستقبل وصانعي مجدها في غدها ويخشى من تسلط أفكار اليأس
والاستسلام التي يبنها من بيدهم أمر هؤلاء الشباب ، انى أرى ان
هذا الفتور بالغ في غالب أهل الطبقة العليا من الأمة ولا سيما في
الشيوخ لأننا نجدهم ينتقصون أنفسهم في كل شىء ويتعاجزون عن
كل عمل ويحجمون عن كل اقدام ويتوقعون الخيبة في كل أمل . .
وهؤلاء الواهنة يشق عليهم مفارقة حالات ألفوها عمرهم كما يأنف
الجسم السقم فلا تلذ له العافية ، فانهم منذ نعومة أظفارهم تعلموا
الادب مع الكبير يقبلون يده أو ذيله أو رجله وألفوا الاحترام
فلا يدوسون الكبير ولو داس رقابهم وألفوا الثبات ثبات الأوتاد تحت
المطارق وألفوا الانقياد ولو الى المهالك وألفوا أن تكون وظيفتهم في
الحياة دون النبات ذاك يتناولون وهم يتقاصرون ذاك يطلب السماء
وهم يطلبون الارض كأنهم للموت مشتاقون . وهكذا طول الألفة على
هذه الخصال قلب في فكرهم الحقائق وجعل عندهم المخازى مفاخر
فصاروا يسمون التضاعر أدبا والتذلل لطفًا والتملق قضاحة واللكنة
رزانة وترك الحقوق سفاحة وقبول الإهانة تواضعا .

وبعد أن يحمل الكواكبي على هؤلاء الذين ألفوا الفتور والخور
يخشى أن يبتثوا سمومهم في الناشئة فهو يقول «وليعلم ان الناشئة
الذين تعقد الامة آمالها بأحلامهم عسى يصدق منها شيء وتعلق
الأوطان بحبال هممتهم عساهم يأتون فعلا هم أولئك الشباب ومن في
حكمهم المحمديون المهذبون الذين يقال فيهم ان شباب رأى القوم عند
شبابهم الذين يفتخرون بدينهم .. الذين يعلمون انهم خلقوا أحرارا
فيأبون الذل والأسار الذين يودون أن يموتوا كراما ولا يحيون
لثاما .. الذين يحبون وطنهم حب من يعلم أنه خلق من تراب ..
والذين يعشقون الانسانية ويعلمون ان البشرية هي العلم والبهيمية
هي الجهالة .. الذين يعتبرون ان خير الناس أنفعهم للناس .. الذين
يعرفون ان القنوط وباء الآمال والتردد وباء الاعمال .. الذين يفقهون
أن القضاء والقدر هي السعي والعمل .. الذين يوقنون ان كل ما على
الارض من أثر هو من عمل أمثالهم البشر فلا يتخيلون «المقدرة ولا
يتوقعون من الأقدار الا خيرا ..»

كذلك رأى الكواكبي ان أحد أسباب تخلف أمته هي أنها
لا تتبع ما نسميه اليوم بالنظام الاشتراكي واذا كان الكواكبي لم يدع
الى هذا المذهب صراحة فان ما نادى به هو لب الاشتراكية وجوهرها .
لقد نادى بأن توزيع الاراضى فيه إجحاف بالفقراء والفلاحين والعمال
واشترط لحيازة المال بعض الشروط : «الشرط الأول أن يكون احرار
المال بوجه مشروع حلال أى باحرازه من بذل الطبيعة أو فى مقابل
عمل .. والشرط الثانى أن لا يكون فى التحول تضيق على حاجيات
الغريم كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء أو
التغلب على المباحات مثل امتلاك الاراضى التى جعلها خالقها مراحا
لكافة مخلوقاته ..»

أما دعوته الى تعليم المرأة فقد سبق بها كل المصلحين الآخرين
مثل قاسم أمين وغيره ومن قوله فى هذا المقام ، ان لانحلال أخلاقنا

سببا آخر يتعلق بالنساء وهو تركهن جاهلات على خلاف ما كان عليه أسلافنا حيث كان يوجد في نساءنا كأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي أخذنا عنها نصف ديننا ، وكمثات من الصحابييات والتابعيات راويات الحديث والمتفقيات فضلا عن ألوف العالمات والشاعرات اللاتي في وجودهن في الصدر الاول بدون انكار حجة دامغة ترغم أنف غيرة الذين يزعمون ان جهل النساء أحفظ لعفتهم فضلا عن أنه لا يقوم لهم برهان على ما يتوهمون حتى يصح الحكم بأن العلم يدعو للفجور ، وأن الجهل يدعو للعفة . نعم ربما كانت العالمة أقدر على الفجور من الجاهلة ولكن الجاهلة أجسر عليه من العالمة ثم ان ضرر جهل النساء وسوء تأثيره في أخلاق البنين والبنات أمر واضح غنى عن البيان وانما سوء تأثيره في أخلاق الأزواج فيه بعض خفاء يستلزم البحث . . .

هذه بعض لمحات سريعة عارضة لجوانب العظمة في دعوة الكواكبي . والامم في محبتها أشد ما تكون حاجة الى تاريخها تفتش فيه وتنقب وتبحث عن جوانب العظمة الكامنة في هذا التاريخ تتخذ منه زادا يعينها في نضالها ونبراسا يضيء لها الطريق ويحيي موات الأمل في تلك النفوس التي يسعى التخاذل الى أوصالها ويشبط بعض تلك الهمم .

ولقد عشت فترة طويلة من الوقت ادرس الكواكبي ودعوته الإصلاحية التي نادى والصيحة الثورية التي انطلق بها قلمه وذلك حين عهدت الى جامعة الجزائر من بين ما عهدت الى تدريس مادة اليقظة العربية لطلابها في ليسانس قسم التاريخ ، فلم أجد أمتنا أحوج ما تكون لشيء مثل حاجتها الى ما نادى به الكواكبي وما دعا اليه . وكأني بالكواكبي يعيش معنا أيامنا هذه ويرى أمتنا العربية على ما هي عليه فيكتب في أسباب ذلك وعلاجه ذلك ان ما كتبه الكواكبي لم يكن غشاء أذرت به الرياح أو كلمات طوتها الأيام

والسنون مثلما طوت غيرها من الكلمات والكتابات . ولكن كلمات الكواكبي وكتابات كانت صادرة عن مبادئ عربية أصيلة ووعي عربي كبير واحساس بمواطن الضعف في هذه الامة . وما أحوج علماء ديننا وما أشد حاجة شبابنا وفتياتنا بل ما أشد حاجة كل فرد من أبناء أمتنا أن يأخذ من كلمات الكواكبي دليلا ونبراسا نستضيء به في مرحلة حاسمة من مصيرنا ينبغي أن نجتمع فيه أسباب القوة والعزة وأن ننفض عن أنفسنا كل دعوة يأس وهمسة شك في مقدراتنا وقدراتنا .

أما حياته نفسها فكانت بحق نموذجا لشخصية عظيمة أبت الركون الى الظلم والضييم فشارت في وجه هذا الظلم صارخة غير مستسلمة له ولا راضية به . وسيلمس القارئ الكريم حين يمر على صفحات هذا الكتاب ان صيحة الكواكبي للمناداة بالحرية وما لقيه بسببها من سجن وتشريد جاءت في وقت أحصى على الناس كل حركاتهم وسكناتهم وأصبح الشك في أي شخص كفيلا بزجه في غياهب السجون . لكن ذلك لم يزد الكواكبي الا ايمانا بأن الاستبداد هو عدو الحق والحرية وقتلتهما . ولما أحس ان أمة رضيت بهذا الاستبداد واستكانت له أخذ يحسها على ما صارت اليه حالها ومآلها . يشعرها بحقها . فهو يقول :

ان المستبد يود أن تكون رعيته بقرا تحلب وكلابا تتذلل وتتملق وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه هل خلقت خادمة له أو هي جاءت به لخدمها فاستخدمها ؛ والرعية العاقلة مستعدة أن تقف في وجه الظالم المستبد تقول له لا أريد الشر ثم هي مستعدة لأن تتبع القول بالعمل فان الظالم اذا رأى المظلوم قويا لم يجرؤ على ظلمه ؛

كان الكواكبي يؤمن بأن الاحساس بالظلم هو بداية الطريق للحرية ومن هنا ينبغي أن يوضع الكواكبي بالنسبة لأمتنا في مصاف:

كبار كتاب الثورة الفرنسية من أمثال فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وغيرهم .

أما دوره في اليقظة العربية فلا يختلف المؤرخون على أنه كان أول من وضع لها أسسها وأشاد بأهميتها . نادى بالقومية العربية قبل الكواكبي بعض المسيحيين العرب الذين تثقفوا بالثقافة الغربية أمثال ناصيف اليازجي وبطرس البستاني وكان بدء حركة اليقظة العربية على يد المسيحيين العرب أمراً طبيعياً ذلك ان المبشرين البروتستانت والكاثوليك قاموا بالدعوة الى مذهبهم من العرب وكان من الطبيعي أن يكون نشاطهم واتصالهم مع المسيحيين العرب وحتى تنجح دعوتهم بدأوا في ترجمة الانجيل الى اللغة العربية واستعانوا في هذا المضمار بأعظم أدباء العرب في ذلك العصر كي يتوصلوا الى ترجمة بليغة أدبية ذات قيمة . كما أنهم بذلوا جهوداً جبارة لتعلم اللغة العربية تعلم اتقان كي يستطيعوا أن يخطبوا بها بين الناس بطلاقة وبلاغة كما أنهم أسرعوا الى انشاء المدارس التي تعلم اللغة العربية حتى تنجح دعوتهم ودعائتهم بين الناس .

وهكذا مضت حركة اليقظة العربية في أول أمرها على يد المسيحيين العرب . وكانت نتيجة اهمال العثمانيين لتعليم اللغة العربية ومطاردتها في العصر العثماني ان اللغة العربية لم تجد سوى ملجأ واحداً هي الارشاليات التبشيرية المسيحية في بلاد الشام بالذات .

ثم كانت دعوة الكواكبي لحركة بعث الامة العربية فجاءت دعوته أول دعوة في مجال اليقظة العربية على يد أحد أبنائها المسلمين . ولم يكن ذلك عن تعصب من الكواكبي تعصبا دينياً ، فالمعروف ان الكواكبي نبذ التعصب وراه آفة الخطر يتجاوز خطره كل آفة أخرى . **لقد رأى ان رابطة الوطن ينبغي أن تكون فوق كل رابطة (١)** .

(١) يوسف أسعد داغر : مصادر الدراسات الادبية ج ٢ القسم الاول سنة

ففى كتابه « أم القرى » يتطرق المؤلف خلال أبحاثه عدة مرات الى قضايا الامة العربية لأنه يعتقد ان العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية . وينتقد الكواكبي الحكومة العثمانية انتقادا مرا ويصرح بأن حقوق العرب مهضومة ويقول من أهم الضروريات أن يحصل كل قوم من أهالى تركيا على استقلال نوعى ادارى يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم . ثم انه ينفى عن العرب التعصب الدينى والجنسى والبرهنة على ذلك يشير الى عدم اشتراك البلاد العربية فى حوادث لبنان (١٨٦٠) ويقول (واما حوادث لبنان والشام وحلب فى القرن السابق القرن التاسع عشر) فما كانت متولدة عن تعصب دينى أو جنسى بل من غرور جماعة من الدروز بالانكليز وجماعة من المسيحيين بنابليون الثالث (١)

ونادى الكواكبي بأنه اذا كان على العالم الاسلامى أن يقف فى جبهة واحدة فلا بد أن تكون القيادة عربية وأن يكون مركزها مكة (أم القرى) لا اسطنبول (٢) .

وبعد فما احوجنا فى وقتنا هذا أن نمثل أقوال المخلصين من أبناء امتنا العربية وأن نسترشد بهذه الاقوال وأن نستعين بها ونرجع اليها . وما احوجنا الى أن نمثل دور هؤلاء المخلصين ونضالهم وكفاحهم كمثال أعلى ونموذج طيب صالح فى وقت أصبح شباب هذه الامة احوج ما يكون للمثل والقدرة الصالحة يقتدون بها ويهتدون وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون .

جامعة الجزائر فى ١/١/١٩٧١

(١) ساطع الحصرى : نشوء الفكرة القومية ص ١٩٧ ط ٤ .

(٢) محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٧٠

الفصل الأول

عصر الكبرياء

ينبغي لمن يؤرخ لعبد الرحمن الكواكبي أن يتناول بالدراسة العصر الذي عاش فيه الكواكبي وأن يعرض لمظاهر الانحطاط في الدولة العثمانية وحكمها للبلاد العربية . ذلك أن الكواكبي تصدى لهذا الاستبداد الذي شهدته البلاد العربية على عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) ثم ان كتابه الذي ألفه بعنوان طبائع الاستبداد ، كان موجها ضد السلطان عبد الحميد بالذات وأن لم يشر الكواكبي الى ذلك في صراحة . كما أن حياة الكواكبي نفسها وهجرته الى مصر كان فرارا من وجه السلطان المستبد عبد الحميد . كذلك جاء كتابه أم القرى ، يحمل حملة شعواء على الاتراك العثمانيين وعلى تاريخهم فهو يورد على لسان أحد أمراء المسلمين مناقشة دارت بينه وبين العضو الهندي في جمعية أم القرى ما يؤكد ذلك ويدل عليه دلالة واضحة .

يقول الأمير : أرجوك ألا تنظر للمسألة بنظر العوام بل بنظر حكيم سياسي فابعد النظر ماضيا ومستقبلا ، وقلب صفحات التاريخ بدقة تجدان ادارة الدين وادارة الملك لم يتحدا في الاسلام تماما الا في عهد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز فقط رضى الله عنهم . واتحدت نوعا في الامويين والعباسيين ثم افترقت الخلافة عن الملك . وأما سلاطين آل عثمان الفخام فاني أذكر لك نموذجا من أعمال لهم أتوها رعاية للملك وان كانت مصادمة للمدين فأقول هذا السلطان

محمد الفاتح وهو أفضل آل عثمان قدم الملك على الدين فاتفق سرا مع فرديناند ملك (الاراغون) الاسبانيولى ثم مع زوجة (ايزابيلا) على تمكينهما من ازالة ملك بنى الأحمر آخر الدول العربية فى الاندلس، ورضى بالقتل العام والاكرام على التنصر بالاحراق وضياع خمسة ملايين من المسلمين باعانتها بأشغاله أساطيل أفريقيا عن نجدة المسلمين ..

وهذا السلطان سليم غدر بآل العباس واستقصاهم حتى انه قتل الأمهات لأجل الأجنة ، وبينما هو يقتل العرب فى الشرق كان الاسبانيون يحرقون بقيتهم فى الاندلس ، وهذا السلطان سليمان ضايق ايران حتى ألجأهم الى اعلان الرفض المكفر .. ،

ثم يعود على لسان هذا الامير فى كتابه أم القرى يعدد ما فعله العثمانيون منها انهم سعوا فى انقراض خمسة عشر دولة وحكومة اسلامية وأغروا الروس على التتار وهولاندة على جاوة وتعاقبوا على تدويخ اليمن ، فأهلكوا الى الآن عشرات المسلمين . ثم يأتى على ما أباحه السلطان عبد الحميد من الربا والخمر وأبطال الحدود . ويمضى الكواكبى فى صفحات كاملة من كتابه أم القرى يحمل حملة كبرى على العثمانيين فيقول : أليس الترك قد تركوا الامة أربعة قرون ولا خليفة ، وتركوا الدين تعبت به الأهواء ولا مرجع، وتركوا المسلمين صما بكما عميا ولا مرشد . أليس الترك قد تركوا الاندلس مبادلة وتركوا الهند مساهلة وتركوا الممالك الآسيوية للروسين وتركوا قارة أفريقيا الاسلامية للطامعين وتركوا المداخلة فى الصين كأنهم الأبعدون .

« أليس الترك قد تركوا وفود المسلمين يغودون خائبين وتركوا المستنصرين بهم عرضة للمنتقمين وتركوا ثلثى ملكهم طعمة للمتغلبين . قهل والحالة هذه ما آن لهم أن يستيقظوا ويصبحوا من

النادمين على ما فرطوا فى القرون الخالية فيتركون الخلافة لأهلها
والدين حماته ٠٠ ، يشير الكواكبي بالطبع الى حق العرب فى الخلافة
وحماية الدين .

ويؤكد الكواكبي انه غير متعصب للعرب وانما يراه ما لا بد
أن يراه كل حر مدقق يتفحص الامر من أن الغيرة على الدين وأهله
والاستعداد لتجديد عز الاسلام منحصران فى أهل البدوية من العرب
حيث ان المشيئة الالهية قد حفظتهم من تلك الأمراض الأخلاقية
كفالج الحرية فى الحواضر باعتقاد أهلها أنهم خلقوا أنعاما للامراء
وكجذام التربية فى المدن بوصفهم النساء فى مقام ربائط
للاستمتاع ٠٠ ، الى آخر ما جاء فى كتاباته مما سوف نتناولها فى
موضعها من هذا الكتاب بمشيئة الله .

كان من الضرورى اذا أن نتناول بالدراسة العصر الذى عاش
فيه الكواكبي وهو النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهى الفترة
التي ولد فيها الكواكبي وعاش وترعرع ثم حمل القلم دفاعا عن حق
أمته أمام صروح الظلم والطغيان التي استبدت بها وطغت عليها
وارسفتها بقيود ثقيلة لا سبيل الى الفكك منها الا بأن يحس أهلها
بحقهم فى الحرية والاستقلال والسيادة .

من المعروف ان الدولة العثمانية وصلت أوج اتساعها وقمة
مجدها فى عهد السلطان سليمان القانونى فامتدت الامبراطورية
العثمانية على عهده من الدانوب الى الخليج العربى ومن أراضى
الامستبس فى أوكرانيا الى الشلال فى جنوب مصر . وحين استكملت
الدولة العثمانية عناصر قوتها ونظمها بدأت تدخل فى دور التدهور .

وجاء تدهور الدولة العثمانية من عدة عوامل داخلية أهمها ان
السلطين العثمانيين بعد سليمان القانونى كانوا سلسلة من الحكام
الضعاف الذين يفتقرون الى دراية باحتياجات الامبراطورية الجديدة .

كذلك اختل نظام الانكشارية حيث فقد هذا الجيش بالتدريج كل ما كان له من نوايا وتحول آخر الأمر الى آلة فساد وفوضى فتضاءل ارتباط الانكشارية بثكناتهم ولم تعد حرفتهم الجندية الصرفة كما كان أمرهم على عهد قوة الدولة العثمانية ، وانما أصبحت الجندية مهنة ارتزاق فلم يعد يذهب كثير منهم الى ثكناتهم الا لاستلام مرتباتهم ووقف جنود الانكشارية حجر عثرة أمام كل اصلاح حتى ان السلطان سليم الثالث الذى حكم الدولة العثمانية ما بين سنتى ١٧٨٩ - ١٨٠٧ دفع ثمن حياته عندما أقدم على ادخال عدد من الاصلاحات فى الدولة العثمانية . فلقد كان سليم معجبا بالثقافة الفرنسية وأراد أن تكون تركيا شبيهة بأوروبا فى التقدم . لكن الانكشارية وقفت للسلطان سليم بالمرصاد فخلعوه عن العرش ثم اغتالوه بغية اجتثاث جذور الاصلاح من جذوره . (١)

وظلت الانكشارية عقبة كأداء فى سبيل الاصلاح حتى نجح السلطان محمود الثانى الذى تولى عرش الدولة العثمانية فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٩ - ١٨٣٩) فى القضاء عليهم نهائيا سنة ١٨٢٦ . وكانت الهزائم قد توالى على الدولة العثمانية فى عهده . فكان عليه أن يعترف بالحكم الذاتى للصرب وتبع ذلك ثورة على باشا فى ألبانيا (١٨٢٠ - ١٨٢٥) وثورة اليونان فى المورة . ولما كان السلطان العثماني غير قادر على سحق ثورة اليونان فقد استعان محمود الثانى بمحمد على لسحق هذه الثورة . وحاول السلطان محمود الثانى أن يكسب العلماء الى جانبه ليؤيدوه فيما أقدم عليه من اصلاحات لكنهم كانوا كالانكشارية عقبة فى سبيل كل اصلاح .

(١) الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٧٤

وكذلك ارجع الى Devereux : The First Ottoman Constitutional period pp. 30-31.

وكان هؤلاء العلماء سواء من منهم في القضاء أو الامامة أو الافتاء أو مشايخ الطرق أو المعلمين يشتد نفوذهم ويقوى كلما ضعفت الدولة العثمانية وصارت الدولة تلجأ الى وساطتهم في كثير من الامور وتستصدر منهم الفتاوى المختلفة ومن أجل هذا سعت الى استرضائهم في شتى المناسبات . بل صار أصحاب المطامع يسعون وراءهم لتحقيق أغراضهم الخاصة . وفي الوقت الذي كان عددهم يزداد ونفوذهم يشتد كان المستوى العلمى للكثيرين منهم ينحط وثقافتهم الدينية تضعف وصارت تنتشر بينهم ضروب من التعصب الأعمى .

ومن المعروف ان الكواكبي في كتاباته تصدى أول ما تصدى لهؤلاء العلماء الذين وصفهم بالمدلسين الذين ضيعوا الدين وأهله . ورأى ان فئة منهم اخترعوا عبادات وقربات لم يأت بها الاسلام ويقول عنهم فكان الله تعالى ترك لنا ديننا ناقصا فهم أكملوه . . . ومنهم قوم يعتبرون البلادة سلاحا والخمول خيرا والخيل خشوعا والصرع وصولا والهديان عرفانا والجنون منتهى المراتب السبع للكمال .

ثم كان أن اقدمت الدولة العثمانية على عهد السلطان عبدالمجيد على محاولة اتمام حركة الاصلاحات وتنظيم أمورها على نحو ما هي عليه في الدول الاوربية الاخرى المتقدمة . ولذلك عرفت هذه الاصلاحات بالتنظيمات ، لكن حركة الاصلاح هذه أيضا لم تؤت ثمرتها المرجوة فجاءت محاولة للتقليد دون أن يؤمن القائمون بأمرها ان شئون كل دولة تختلف عن الاخرى .

وأشار الكواكبي في كتابه أم القرى الى هذه التنظيمات فوصف حال الدولة العثمانية بأنها كانت قبلها خيرا منها بعدها فعطلت أصولها القديمة ولم تحسن التقليد ولا الابداع فتشتت حالها ولا سيما في العشرين سنة الاخيرة التي ضاع فيها ثلثا المملكة وضرب الثلث الباقي وأشرف على الضياع لفقد الرجال . . .

وإذا كانت الدولة العثمانية قد حددت سلطات الولاية إلا أنها اقتبست كثيرا من النظم الأجنبية وغالت في المركزية فانتقلت من الافراط الى التفريط وعانت البلاد العربية كثيرا من هذا الاجراء . وحاول بعض الولاة المصلحين مثل مدحت باشا وغيره أن يجعلوا الدولة تخفف من غلوها في المركزية فذهبت جهودهم ادراج الرياح :

وتستند هذه التنظيمات التي أصدرتها الدولة العثمانية الى مرسومين صدر الأول سنة ١٨٣٩ وعرف باسم منشور كلخانة نسبة الى قصر كلخانة الذي صدر فيه والثاني سنة ١٨٥٦ عرف باسم منشور التنظيمات الخيرية . يقرر الاول الحقوق التي ينبغي أن يتمتع بها كل فرد في الدولة العثمانية وهي : أمنية الروح والعرض والمال . ذلك أن أبناء الدولة العثمانية حتى ذلك الحين لم يكونوا يأمنون على أرواحهم أو أموالهم . فكثيرا ما كان الاشخاص يعدمون من غير محاكمة ولم يكن ذلك يتم بأمر السلاطين فحسب بل بأمر الولاة كذلك . وكانت الدولة العثمانية تختار للولايات ولاة ليسوا بذات كفاءة حتى أصبحت الامارة وراثية في كثير من البيوت ، كامارة مكة وامارات العشائر الضخمة في الحجاز والعراق .

وقد فسر الكواكبي السر في ذلك بأن الهدف منه « أن يكون الأمير منفورا ممن ولي عليهم مكروها عندهم فلا يتفق معهم ضد الدولة » .

والى جانب منشور كلخانة صدر منشور آخر عقب حرب القرم التي وقعت بين روسيا وتركيا سنة ١٨٥٦ عرف بمنشور التنظيمات . أكد هذا المنشور الاخير ما سبق أن قرره المنشور السابق ولكنه أضاف اليه بندا هاما هو معاملة جميع تبعة الدولة (الغير المسلمين من أبناء الدولة) مهما كانت أديانهم ومذاهبهم معاملة متساوية مع المسلمين من أبناء الدولة . كما صرح في الوقت نفسه ابقاء الامتيازات

الممنوحة لرؤساء الملل غير المسلمة على أن تنظم بقوانين جديدة .
كما وعد بإصدار قانون جديد لاصلاح شئون الولايات . وتضمن
المنشور كذلك ان جميع الوظائف فى الدولة أصبحت من حق كل
رعايا السلطان بلا استثناء أو تفریق بينهم كما سمح للأجانب
بالملكية فى الدولة بشروط خاصة . (١)

كان الدافع والأساس وراء اجراء هذه التنظيمات المذكورة هو
ضغط الدول الاوربية ومطالبتها بالاصلاح خاصة بالنسبة للمسيحيين
التابعين للدولة العثمانية . وبرغم هذا لن يكن الاصلاح عن اقتناع
وايمان من جانب القائمين عليه والمنادين به برغم وجود عدد من
رجال الدولة المستفيدين الذين كانوا يرون ضرورة اصلاح جهاز
الدولة وتجديده على أساس اقتباس النظم الاوربية من غير مساس
بالاحكام الشرعية . وعلى كل فثمة نقد شديد يوجه الى حركة
التنظيمات الخيرية ذلك ان الحماس كان شديدا للأخذ بنظم الغرب
وأساليبه ، لكن هذا الحماس لم يتعد الجانب الشكلى فقط دون
وجود الظروف الموضوعية التى تمكن من فاعليتها . وهذا ما عبر
عنه الكواكبي بقوله « ان الدولة أحسننت التقليد ولم تحسن
الابداع » .

وكانت النتيجة ان أصبحت التنظيمات مجرد مبادئ مكتوبة
على ورق فلم يستطع السلطان أن ينقد ما جاء بها بل نجح أعداء
التقدم والاصلاح فى ابعاد رشيد باشا الذى كان من وراء هذه
التنظيمات يؤيدها ويتحمس لها . ونجحوا فى ذلك حتى عينه
السلطان سفيرا لتركيا فى باريس سنة ١٨٤١ . (٢) ولم تتحقق
التسوية بين المسلمين والمسيحيين فظلت الوظائف العامة لا سيما

(١) Devereux : The First Ottoman Constitutional Period, p. 23.

(٢) Revereux : p. 23.

الوظائف الادارية والقضائية شبه منحصورة بالمسلمين فعلا وان لم يكن قانونا . وظلت الدول الاوربية تستفيد من هذه الاوضاع في بسط حمايتها على المسيحيين وتحريكهم بين الحين والآخر فاستمرت فرنسا تدعى حماية الكاثوليك في جميع أنحاء الدولة العثمانية وظلت روسيا تعتبر نفسها حامية الارثوذكس وصارت انجلترا تحمي البروتستانت فضلا عن اتصالها ببعض الطوائف الأخرى (١) .

وشهدت البلاد العربية تغيرات كبيرة على عهد التنظيمات فقد أخذت الدولة العثمانية تطبق فيها هذه التنظيمات بدرجات متفاوتة . فسوريا وبيروت وحلب كانت أولى الولايات التي طبقت فيها هذه التنظيمات تطبيقا شاملا وسريعا . أما تطبيقها في ولايتي بغداد والبصرة فكان أقل سرعة وأقل شمولاً . أما ولايتي اليمن والحجاز فلم تشهد من التغيرات الا الشيء القليل . ولقد كان للقرار الخاص بتنظيم شئون البطاريكات والمجالس المالية ان زاد ترابط الجماعات المسيحية وأخذت الدول الاوربية خلال عهد التنظيمات تتنافس في توسيع نفوذها في البلاد العربية عن طريق تأسيس مدارس تنشر لغتها وثقافتها . وكانت حلب - وهي موطن العلامة الكواكبي - من تلك الولايات التي نالت حظا كبيرا من هذه المدارس الاجنبية وهذا النفوذ الغربي مما كان له تأثيره على الثقافة والنهضة العلمية فيها بوجه خاص .

وكان من الممكن أن تثمر التنظيمات ثمرتها المرجوة لولا هؤلاء الذين كانوا يقفون في وجه كل حركة اصلاحية في الدولة العثمانية واستعان هؤلاء المعارضون بالعلماء الذين أفتى بعضهم بعدم قانونيتها على أساس أنها تعطي لغز المسلمين ما للمسلمين من حقوق . وأحدث هذا في وقت كانت الاصلاحات مسألة تقتضيها

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٩٣

الضرورة للحيلولة دون ازدياد تدخل الدول الأوروبية في أمور الدولة العثمانية بحجة المحافظة على حقوق الرعايا المسيحيين في الدولة العثمانية .

ومع حلول عام ١٨٧٦ أصبح الموقف متدهورا في الدولة العثمانية فقد فشلت حركة الإصلاحات التي أقدمت عليها الدولة العثمانية والتي أصدرت بشأنها منشورى التنظيمات التي سبق أن أشرنا إليها . وأسوأ من ذلك ازدياد القروض فقد كان لموت السلطان عبد المجيد سنة ١٨٦١ وتولى السلطان عبد العزيز أمور الدولة ان ساء الموقف عن ذى قبل . فقد اشتهر عن السلطان الجديد اسرافه وبذخه وتوالت الديون على الدولة العثمانية حتى ان الباب العالي اضطر في أكتوبر سنة ١٨٧٥ الى أن يخصص ميزانية الدولة لتسديد الدين وخسرت الدولة أكثر ممتلكاتها في البلقان . ورغم تمكن القوات العثمانية من اخماد ثورة الجبل الاسود والبوسنة والهرسك والصرب وكريت فقد خسرت هذه المقاطعات . كذلك اتحدت ولايتا الأفلاق والبغدان لتشكلا الدولة الرومانية . ولم تكن حالة الولايات العربية بأفضل من ذلك فقد اشتد التدخل الاجنبى فى شئون تونس ومصر بعد أن ازدادت ديونهما وأخذت فرنسا ترنو الى تونس بعد بسط نفوذها على الجزائر سنة ١٨٣٠ كذلك ازداد النفوذ الفرنسى فى لبنان وغيرها من الاقطار السورية ونالت الشركات الفرنسية امتيازات عديدة فى تلك البلاد . (١)

ومضت الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد العزيز فى تدهور مستمر لا تجد من يوليتها العلاج الحاسم الناجع خاصة بعد أن استثمرت فى عقدها للقروض حتى عجزت الدولة عن سداد

(١) عبد الكريم غرايبة : سورية فى القرن التاسع عشر ص ٣٥ .

الديون المستحقة عليها في مواعييدها . وأعلن في السادس من أكتوبر سنة ١٨٧٥ عن إفلاس الدولة العثمانية . وبأذرت الدول الأوروبية إلى التدخل حفاظا على حقوق دائئتها . فتشكل مجلس للدين العام ضم ممثلين عن بريطانيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا وألمانيا والدولة العثمانية . ويذكر المؤرخون أن السلطان عبد العزيز كان ينفق من هذه القروض على ملذاته الخاصة وأنه تورط في الديون بشكل كبير شأنه شأن الخديو اسماعيل . وزار عبد العزيز مصر سنة ١٨٦٣ وكان أول سلطان عثماني يزورها بعد فتحها على عهد السلطان سليم . كما زار باريس سنة ١٨٦٧ وأقام القصور الضخمة ثم كان أن اشتعلت نيران الثورة البلغارية في أول مايو ١٨٧٦ وتعرض المسلمون فيها لمذابح أثارت طلاب المدارس الدينية في اسطنبول الذين قاموا بمظاهرات ضد السلطان وانتهى الأمر بأن اعتبر السلطان عبد العزيز مستولا عن الضعف المالي والعسكري الذي عانت منه الدولة العثمانية فصدرت فتوى من شيخ الاسلام بخلعته وانتهت حياته بانتحاره بعد ذلك (١) . وخلفه السلطان مراد الخامس بن عبد المجيد في ٣٠ مارس ١٨٧٦ لكن سوء صحته واضطراب أعصابه ومرضه بالصرع بدت واضحة على تصرفاته حتى تقرر عدم صلاحيته للحكم فخلع وبويع أخوه عبد الحميد باسم السلطان عبد الحميد الثاني .

وهكذا كانت حالة الدولة العثمانية في سنة ١٨٧٦ (وهو العام الذي تولى فيه السلطان عبد الحميد الحكم) سيئة للغاية والموقف فيها متدهور بشكل واضح .

وحين نتناول بالحديث عهد السلطان عبد الحميد الثاني ينبغي أن نتناول ذلك بالدراسة المسهبة ، ذلك أن الكواكبي عاش

الجزء الأكبر من عمره على عهد هذا السلطان . فلقد تولى عبد الحميد الحكم وقد بلغ الكواكبي من العمر - كما سيوضح ذلك عند تناولنا لترجمته - اثنين وعشرين عاما ، وظل السلطان عبد الحميد يحكم الدولة العثمانية مدة قاربت الثلاث قرن . وتوفي الكواكبي قبل أن يخلع هذا السلطان من العرش سنة ١٩٠٩ اثر الثورة الشهيرة التي وقعت في ذلك الحين والتي أعقبتها حكم جماعة الاتحاد والترقي للدولة العثمانية . ثم ان الكواكبي تصدى لاستبداد السلطان عبد الحميد بمثل ما لم يتصد له كاتب آخر في زمانه وتحمل بسبب ذلك هجره لوطنه الى مصر التي كانت ملجأ الأحرار والمفكرين في ذلك الحين . ونشر فيها (مصر) كتابه الذي أسماه « طبائع الاستبداد » والذي حمل فيه على الحكم المستبد ، وصدرت أوامر السلطان عبد الحميد بمنع الكتاب من الدخول الى بلاد الدولة العثمانية لما فيها من صيحات حرة ودعوة الى الثورة على الظلم والاستبداد . وبرغم ذلك تسربت نسخ منه خفية الى كثير من الناس فأحدثت دويا كبيرا وأثرا ملموسا في البلاد العربية ، ومن هنا كان للكواكبي الدور الكبير في اليقظة العربية الحديثة على نحو ما سنتناوله فيما بعد عندما يحين موضع ذلك من هذا الكتاب .

جاء السلطان عبد الحميد الى الحكم بعد خلع أخيه السلطان مراد الخامس . وكان الأخير قد تولى الحكم بعد خلع عمه السلطان عبد العزيز . لكنه نظرا لما اتضح من مرض مراد الخامس وتأثير ذلك على تصرفاته أقدمت الجماعة المستنيرة التي تزعمت حركة الإصلاح في الدولة العثمانية - على خله . وكان يتزعم هذه الحركة مدحت باشا . ولد مدحت باشا في القسطنطينية سنة ١٨٢٢ وتولى مناصب إدارية مختلفة في الدولة الى أن أصبح واليا على بلغاريا وله من العمر أربعون عاما ، ثم تولى ولاية بغداد عام ١٨٦٨ وأظهر نشاطا وكفاءة ووطنية وسعة أفق لم يظهرها كثيرون غيره من أبناء الدولة .

كان مدحت باشا شأنه شأن الشباب التركي المثقف المشبع بروح الثقافة الغربية يرى ان اصلاح الدولة العثمانية يكمن في وجود جهاز برلماني يستند الى دستور مكتوب يلتزم به السلطان وكانت المشكلة ان السلاطين لم يكونوا يشعرون بضرورة الاصلاح الا عندما تدفعهم الاحوال وتحلق الاخطار بالدولة العثمانية من كل جانب . عندئذ يصدرن فرمانات الاصلاح مبتغين بها اقناع الدول الأوروبية أنهم بسبيل اتخاذ العديد من وجوه الاصلاح في شئون الدولة ، فاذا ما زال الخطر نفضوا أيديهم عن هذه الاصلاحات وساعدتهم على ذلك وجود الفئات الرجعية من العلماء وغيرهم الذين كانوا يقفون لكل حركة اصلاحية بالمرصاد . وبرغم أن كثيرا من هؤلاء المستنيرين الاتراك ودعاة الاصلاح وجدوا استحالة بقائهم في داخل اراضي الدولة العثمانية خشية القبض عليهم أو اغتيالهم ، فان عددا منهم بقي يعمل وينظم حركات المقاومة والتصدي للاستبداد . وكان على رأس هؤلاء مدحت باشا . استدعاه السلطان عبد العزيز ليتولى منصب الصدر الاعظم في يوليو ١٨٧٢ بعد أن أهدقت الاخطار بالدولة العثمانية ، ذلك ان مدحت كان شخصية يحترمها المسئولون الأوروبيون والمسيرون لدفة السياسة الأوروبية في ذلك الحين . كان مدحت يحلم بامبراطورية لا يكون فيها تمييز بين مسلم ومسيحي وانما الكل رعايا عثمانيون . وكان بفكره هذا سابق لفكر غيره من الأحرار ، كذلك كان رأيه شأن دعاة الاصلاح غيره . ان أول خطوة لاصلاح أمور الدولة العثمانية هو الحد من نفوذ السلطان (١) .

ولما وجد مدحت استحالة العمل مع السلطان عبد العزيز لم يجد بدا من الاستقالة التي قبلها السلطان على الفور . وكان معنى قبول السلطان عبد العزيز لاستقالته أنه لا يريد أن يساير الركب

Devereux : The First Ottoman Constitutional period pp. 30-31. (١)

التحررى فى الدولة وأنه جاء بمدحت لفترة مستهدفا من وراء ذلك اقناع الدول الاوربية بالكف عن التدخل فى شئون الدولة العثمانية وعلى اثر استقالة مدحت قدم بعض الاحرار المؤيدين لمدحت فى سياسته مذكرة فى التاسع من مارس ١٨٧٦ الى ساسة أوروبا . وألقت المذكرة اللوم على السلطان . وقالت المذكرة أنه لو أنه بدلا من أن تكون أمور الدولة رهن تصرف السلطان كانت هناك حكومة صالحة تحكم فى تركيا ، لما كانت هناك مشكلة ما خاصة بجنس أو بدين . ولو أنه بدلا من أن يحكمنا طاغية يعتبر نفسه ممثل الله فى أرضه فيحكمنا حاكم صالح معه مجلس نيابى يضم ممثلين لكل جنس ودين لبلغت تركيا دون صعوبة ما هى جديرة به بالنسبة لأرضها وشعبها (١) .

وتطورت الامور بسرعة فقد بانّت الحاجة الى اصلاح جذرى وفعال شجع دعاة الاصلاح ان مراد ابن أخى السلطان عبد العزيز كان يدعو للاصلاح ويطالب بالحياة الدستورية . وحاول السلطان عبد العزيز ان يكسب الاحرار الى جانبه ، ويحقق مطالب طلبية الشريعة الاسلامية من طرد الصدر الاعظم محمود نديم باشا صاحب السمعة السيئة والمجىء بمدحت باشا محله . فعزل السلطان نديم باشا لكنه عين محله رشدى باشا بدلا من المجيىء بمدحت . عندئذ تجمعت القوى المعارضة للسلطان وأجمعوا على ضرورة خلعه . وتم ذلك فى الثلاثين من مايو سنة ١٨٧٦ وتولى عملية اعتقاله والقبض عليه سليمان حسنى باشا الذى أصبح فيما بعد مدير المدارس العسكرية . وجيىء بمراد سلطانا على الدولة العثمانية باسم مراد الخامس .

ووعده السلطان مراد الخامس ان يعلن دستورا للبلاد بمجرد أن تستتب الامور ووجه دعوة الى الأتراك الاحرار الذين فروا خارج

(١) Ibid, p. 32.

تركيا ان يعودوا اليها . وبرغم ان السلطان مراد بدت منه هذه الروح الاصلاحية فان الحاشية التي كانت تقف لكل حركة اصلاحية سرعان ما اخاطت بمراد وجعلته ينسى وعوده التي وعد بها . فجاء من يبلغ مدحت على لسان السلطان انه لا يرغب في وجود مجلس نيابي . فأممتنا لم تبلغ بعد الوقت المناسب لذلك ، ويجب أن تتولى يد قوية زمام الأمور حتى تقضى على الاضطراب الذي يسود البلاد .

وبدلا من أن يوقع السلطان مراد على مشروع فرمان الذي أعده مدحت والذي ينص على وجود حكومة دستورية ، أحدث السلطان تعديلا فيه فنص على احترام القوانين التي ينبغي أن ترعى مصالح كل السكان . وبأدر مدحت ينشر مشروعه الذي كان قد أعده والذي ينص على الحد من سلطة السلطان واستبدال الصدر الاعظم بمنصب رئيس للوزراء وإيجاد مجلس للنواب إلى غير ذلك مما عليه الدول الاخرى التي تحكم حكما دستوريا . وكان من شأن ذلك ان يزيد من سخط السلطان ولم ير دعاة الاصلاح بدا من التحرك . قابل مدحت أخا السلطان مراد يعرض عليه أن يتولى الحكم حتى يشفى السلطان من مرضه الذي بدا عليه . لكن عبد الحميد رفض على أساس أن القانون العثماني لا يسمح بالوصاية . ومن ثم تقرر عزل مراد والمجىء بعبد الحميد سلطانا على الدولة العثمانية .

وقبل أن يعلن مدحت ذلك رسميا أراد أن يتجنب ما حدث على عهد أسلافه من السلاطين السابقين حين نكثوا بوعودهم في الاصلاح . فطلب مدحت مقابلة عبد الحميد واستوثق منه رغبته المجادة في الاقدام على الاصلاح . اشترط مدحت على السلطان عبد الحميد ثلاثة شروط كي يجرى به إلى الحكم . أولا ان يصدر دستورا دون تأخير ثانيا أنه كسلطان يتصرف في مسائل الدولة بناء على استشارة الوزراء المسئولين ثالثا أن يعيد تعيين الرجال

الأحرار الذين عزلهم مراد مثل فايق كمال وسعد الله بك وغيرهم ووافق عبد الحميد على كل ما اشترط عليه مدحت بل ان السلطان عبد الحميد قال أكثر من ذلك اننى لا أقبل الحكم الا على أساس دستورى استشارى .

وتولى السلطان عبد الحميد الحكم وظلت الأحداث التى مرت بها البلاد من قبل والتى أدت الى خلخلة اثنين من السلاطين من قبله (عبد العزيز ، مراد الخامس) تؤثر فى نفسيته تأثيرا عميقا وجعلته يخاف على عرشه وحياته . وحملته على اتخاذ سلسلة طويلة ومعقدة من التدابير أفضت الى استبداد لم تشهد الدولة العثمانية ومن بينها البلاد العربية له نظيرا من قبل .

ما كاد عبد الحميد يتولى عرش الدولة العثمانية حتى بدأت تصرفاته تناقض وعوده . لم يوافق على مشروع فرمان الذى أعده مدحت فعزل فيه مثلما فعل السلطان مراد من قبل ثم بدأ يقرب ، الى المستشارين والشخصيات التى عرفت بكرهها للاصلاح ولمدحت باشا ولدعاة الاصلاح لكن الموقف الخارجى بالنسبة للدولة العثمانية كان من شأنه أن يرغم السلطان على قبول مبادئ الاصلاح التى نادى بها مدحت ولو لفترة محدودة . وتفصيل ذلك ان الموقف فى البلقان تدهور بشكل ملحوظ نتيجة لازدياد ثورات الصرب والبوسنة والهرسك وتدخلت الدول الأوروبية بعد أن بدأ الجيش التركى يسحق الصربيين فعرضت على السلطان قبوله هدنة غير رسمية من ١٦ - ٢٥ سبتمبر .

وفى اليوم التالى مباشرة (٢٦ سبتمبر) اجتمع السلطان مع العلماء والاعيان وكبار رجال الدولة وقادة الجيش لبحث معهم ما اذا كان يقبل مقترحات الدول الأوروبية أو يرفضها والتى كانت تقضى بمنح الصرب والهرسك حكما ذاتيا وادخال العديد من الاصلاحات فى بلغاريا . وانتهز مدحت هذه الفرصة وأعلن للسلطان

ان اقدام الدولة العثمانية على الاعلان عن برنامج للاصلاح كفيل
بتفويت الفرصة على الدول الاوربية للتدخل .

وبرغم كره السلطان عبد الحميد للاصلاح الا أنه لم يكن أمامه
مفر من ذلك للحيلولة دون التدخل الأجنبي في البلاد . وتألفت
على الفور لجنة لوضع الدستور عهد الى مدحت برئاسة . واذا
كان عبد الحميد قد حرص أن يضم في اللجنة من يثق فيهم أو من
يعتقد أنهم مخلصون له ، الا أن صوت الأحرار وآراءهم كانت هي
الغالبية خاصة وان مدحت باشا كان رئيس هذه اللجنة . وليس
معنى هذا ان مدحت لم تواجه عقبات في هذه اللجنة التي بدأت
عملها منذ السابع من أكتوبر ١٨٧٦ حتى أتمته في ٢٠ نوفمبر
من نفس العام ، ذلك أن بعض علماء الدين الذين وافقوا على مضمون
ان تضم اللجنة من يمثل المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية ،
فأنهم أصروا على وجهات نظر معينة تجاه موقفهم من غير المسلمين
ولذلك فان مشروع الدستور مثلاً لم يشر الى حق المسيحيين في
دخول الجيش ولا الأخذ بشهادتهم في المحاكم على قدم وساق مع
المسلمين . كذلك لم يستطع مدحت النص في مشروع الدستور على
قرار بإفشاء المدارس التي تجمع بين أبناء الدولة العثمانية بصرف
النظر عن عقيدتهم الدينية . وما أن انتهت اللجنة من عملها حتى
وجد مدحت أن بعض حاشية السلطان عبد الحميد قد أوعزت له
ان مشروع الدستور ينتقص من سلطاته وبالتالي ينتقص من هيئته
أمام الرأي العام . كذلك لم يؤخذ بوجهة نظر اللجنة التي أقرت
استبدال وظيفة الصدر الأعظم برئيس للوزراء يكون من حقه اختيار
الوزراء المسئولين أمام مجلس النواب . وتعلل السلطان عبد الحميد
في رفضه لبعض توصيات اللجنة أن هناك ثغرات في مشروع
الدستور المقترح لا يتمشى مع عادات وتقاليد أمنا ، .

وكان من المتوقع أن يؤجل السلطان عبد الحميد اعلان

الدستور برمته لولا ان الحوادث الخارجية تطورت بسرعة . فلقد استؤنفت الحرب في البلقان بعد انتهاء الهدنة التي فرضتها الدول الاوربية . وفي ٣١ أكتوبر ١٨٧٦ قدمت روسيا انذارا للباب العالي تطلب وقف الحرب خلال ثمان وأربعين ساعة واعلان هدنة مدتها شهرين . ولما كان الباب العالي غير مستعد لمجاهاة روسيا فقد أعلن قبوله لمطالبها في اليوم التالي . ولما كانت بريطانيا لا تريد أن تترك زمام المبادرة لروسيا فقد أرسل وزير خارجيتها لورد دربي منشورا للدول الأخرى وللباب العالي يطلب عقد مؤتمر لوضع حل حاسم للمسألة الشرقية . وقبلت الدول ومعها الباب العالي ذلك . واختيرت الاستانة مقرا للاجتماع . ولكن روسيا أصرت أن يجتمع مندوبو الدول أولا بدون حضور ممثل الباب العالي . وكان معنى ذلك ان الدول ستجتمع لتقرر ما تريد فرضه على الباب العالي لقبوله . ولم يكن أمام الباب العالي خيار فعليه أن يقبل ما تأمره به الدول . وكان رأي مدحت أنه بمبادرة السلطان باعلان الدستور وعزمه على الاصلاح يستطيع أن يحول بين الدول الأوربية وبين التدخل .

ومن هنا فقط ولسبب ذلك فحسب أعلن عبد الحميد موافقته على اعلان أول دستور للبلاد وأصدر فرمانا رسميا بذلك في ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦ .

ويسمى الأتراك العثمانيون الدستور باسم القانون الاساسي كما اتفق على تسميته العهد الدستوري بعهد المشروطية الاولى تمييزا له عن المشروطية الثانية التي قوت سنة ١٩٠٨ اعادة العمل بالدستور حين أجبر السلطان عبد الحميد على ذلك من طرف جماعة الاتحاد والترقي .

وفرح الناس في كل فج باعلان الدستور سنة ١٨٧٦ واعتقدوا ان عهدا مشرقا وضاء قد أشرق على الدولة العثمانية . وان

السلطان لم تصبح سلطته مطلقة بل مشروطة ومقيدة . وكان أهم ما تضمنه هذا الدستور (١) أنه غير من شكل الدولة فبعد أن كانت كل السلطات مركزة في يد السلطان كلمته هي القانون ليس لرعاياه من حق الاطاعة الا ما يأمر به السلطان أصبحت الدولة العثمانية بموجب هذا الدستور دولة ذات نظام دستوري برلماني وأصبح لرعايا الدولة العثمانية حق التمتع بالحريات والاشتراك في تشريع القوانين . فقد قرر الدستور وجود هيئة برلمانية تتكون من مجلس للشيوخ يسمى مجلس الاعيان ومجلس من النواب يسمى مجلس المبعوثان ، وأعطى لأعضائهما على غرار المجالس النيابية في أوروبا بعض الامتيازات ، من ذلك مثلا لا يحق القبض عليهم الا بأوامر من مجلسيهما .

وكان أهم ما قرره الدستور الذي صدر سنة ١٨٧٦ ان الدولة العثمانية التي ظلت على مدى ثلاثة قرون تعترف برعاياها على أساس الجنس والدين واللغة أصبحت بموجب هذا الدستور تعترف ان الكل بدون تمييز بينهم مواطنون عثمانيون متساوون أمام القانون ولا يصح اتخاذ الدين وسيلة للتمييز بينهم .

وبرغم أن السلطان عبد الحميد أصر قبل اعلان الدستور ان تظل له كثير من السلطات فبقى من حقه أن ينفي من يشاء بحجة خطره على الامن ، واضطر مدحت للموافقة على ذلك اذ أن عبد الحميد هدد برفض الدستور برمته ما لم يوافق على ذلك . وكان من العجيب ان مدحت كان أول ضحية تعرضت للنفي بموجب هذه المادة بعد ان انقلب عبد الحميد ونكث على عقبيه وعطل الدستور

(١) لمن يشاء التفصيل في هذه الناحية يمكن الرجوع الى كتاب : Devereux

The First Ottoman Constitutional period, pp. 61-79.

وكذلك كتاب انطاكي عبد المسيح : نيل الاماني في الدستور العثماني .

وكان تخلص عبد الحميد من مدحت بداية للتخلص من النظام الدستوري بأسره . فكان أن أصدر قرارا في فبراير من العام التالي (١٨٧٧) بنفى مدحت وذلك قبل اجتماع البرلمان الذى كان لمدحت الفضل الأول فى وجوده . ولم يلبث أن أصدر فرمانا فى فبراير من العام التالى (١٨٧٨) بتأجيل اجتماع مجلس النواب (المبعوثان) وكانت تركيا فى ذلك الحين قد دخلت الحرب مع روسيا وخسرت خسارة فادحة وأصبحت القوات الروسية قريبة من عاصمة الدولة نفسها الأمر الذى أدى الى عقد مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ بعد أن هددت انجلترا بالتصدي للغزو الروسى للدولة العثمانية . طالب بعض النواب بالتحقيق فى أسباب الهزيمة ومحاكمة المسئولين . وخشى عبد الحميد ان يكون هو أحد ضحايا نظام قبله على مضض . فبادر الى تعطيل الدستور وان لم يلغ رسميا . فلقد استطاع عبد الحميد الذى كان من أدهى السلاطين أن يبدو بذلك وكأنه الحريص على الدستور لكن الظروف الخارجية هى التى تحول دون العمل به . واستطاع بهذه الوسيلة أن يتخلص من النظام الدستورى مدة ثلاثين عاما متصلة تقريبا حتى أجبرته ثورة سنة ١٩٠٨ على إعادة العمل به .

وعادت الدولة العثمانية الى نظام استبدادى فريد فى نوعه وهو النظام الذى تصدى الكواكبي لمحاربته والتنديد به وأوقف قلمه وبيانه دفاعا عن الحرية التى أهدرت على عهد هذا السلطان . واذا كانت الدولة العثمانية قد عادت الى نظام الحكم المطلق ، إلا أن هذا النظام لم يبق على حالته السابقة بل أخذ يشتد ويقوى شيئا فشيئا حتى تحول آخر الأمر الى حكم استبدادى فظيع لم تشهد الدولة العثمانية له مثيلا من قبل . وفرض السلطان عبد الحميد نظاما كبيرا ودقيقا من التجسس والرقابة على الصحف والمطبوعات وتفنى الجوابيس فى عملهم وكثر عددهم وكانوا يعرفون باسم

الخفية لأنهم يتجسسون على الناس خفية (١) . وكان تقارير هؤلاء الجواسيس كافية لاعتقال الكثير من الاشخاص والزج بهم فى السجون ليشهدوا فيها أشد أنواع التعذيب وكثيرا ما كان يتبع ذلك النفي خارج البلاد . واهتم السلطان عبد الحميد بالصحافة فكلمها وجعل كل كلمة تقال تنشر أو تكتب تعرض على الرقيب الدائم وكذلك كان الحال بالنسبة للكتب وكل أنواع المطبوعات ، فكان يتحتم على كل مؤلف أو كاتب أن يرسل مسودات كتابه أو مقالته الى لجنة تسمى لجنة تدقيق المؤلفات ليحصل منها على رخصة خطية لما يريد طبعه . وكثيرا ما كانت أعمال هذه اللجنة ومراجعتها للكتاب أو المقال يستغرق شهورا عدة ان لم تناهر السنة الكاملة وكان المراقبون والمدققون يغالون فى البحث والتدقيق مغالة شديدة لأنهم كانوا يحسبون حسابا لأبعد الاحتمالات وأغرب التأويلات وكثيرا ما عطلت صحف وصودرت كتب فى هذه الفترة (٢) كما فسد جهاز الدولة فلم تعد الاستقامة أو الكفاءة سبيلا الى الترقى بل أصبح التملق والنفاق هو السبيل الى الوصول الى كراسى الحكم وساءت حالة الدولة المالية فازدادت نفقات السلطان وزادت مصروفاته على شبكة الجاسوسية ، كل هذا مع زيادة عدد رجال القصر ومرافقى السلطان . وهكذا أدى الاستبداد الحميدى الى استشراء الفساد فى جميع الامور والميادين .

ومضت الدولة العثمانية فى حالة سيئة من التدهور والانحطاط فقدت الكثير من ممتلكاتها فاحتلت فرنسا تونس (١٨٨١) وخضعت مصر للاحتلال البريطانى (١٨٨٢) وحاولت الدولة العثمانية اخضاع اليمن والقضاء على ثوراتها فعجزت كما انحسر الحكم العثمانى فى الخليج العربى عن منطقة الاحساء

(١) ساطع الحصرى البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٠٠

(٢) المرجع السابق ص ١٠١

وتنازع آل سعود وآل شمر في امارتي نجد وشمر السلطة واخذوا
يديران حروبهما وشتونهما دون الالتفات الى ما كان يدعيه الترك
من حق السيادة (١) .

ولقد أشار الكواكبي لهذه الحالة السيئة التي بلغتها الدولة
العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد في كتابه أم القربى فقال
انه في العشرين سنة الأخيرة (السابقة على تأليفه كتابه) وهي
السنوات التي حكم فيها عبد الحميد البلاد ، « ضاع ثلثا المملكة
وضرب الثلث الباقي وأشرف على الضياع لفقد لرجال وصرف
حضرة السلطان قوة سلطنته كلها في سبيل حفظ ذاته الشريفة وفي
سبيل الاصرار على سياسة الانفراد » (٢) .

حاول عبد الحميد أن يسخر قوة الدين لغاياته السياسية
وأراد أن يكسب المسلمين كقوة تسانده أمام الخطر الاوربي ، ولهذا
نجدد كلما اشتدت الاخطار المحيطة بالدولة العثمانية لجأ عبد الحميد
الى تأكيد حقوقه كخليفة للمسلمين . فقد كان يرمى الى تدعيم
سلطته الزمنية في الدولة العثمانية بالتأكيد على حقوقه كخليفة
للمسلمين . ومن المعروف ان السلاطين العثمانيين أضفوا على أنفسهم
لقب خلفاء المسلمين منذ تم فتح مصر على يد العثمانيين ورددوا أن
الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين في مصر تنازل عن
الخلافة للسلطان سليم الثاني ، وبهذه الصورة انتقلت الخلافة
الاسلامية من العباسيين الى العثمانيين وبرغم تواتر هذا القول فان
الأبحاث التاريخية لا تؤيدها ولا تدعمها كتابات المؤرخين المعاصرين
للفتح العثماني لمصر (٣) .

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب (مترجم) ص ٦٧

(٢) الكواكبي : أم القرى ص ١٤٢ طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٣١

(٣) ارجع لتفصيل هذه النقطة في ساطع المصري : البلاد العربية والدولة =

ومن المعلوم أنه بقدر استفادة العثمانيين من توليهم منصب الخلافة الاسلامي في اخضاع الشعوب العربية لهم واستسلام العرب لهم ، الأمر الذي أخر كثيرا باليقظة العربية ، فإن السلطان العثماني أصبح مع ضعف الدولة العثمانية وترديها في هاوية الضعف والانحطاط - في حاجة الى توكيد صفته كخليفة للمسلمين . وكان السلطان عبد الحميد هو أكثر السلاطين العثمانيين اهتماما بذلك وحرصا عليه . فقد كانت خطته ترمى الى إعادة الخلافة الى مكانتها اللاتقة بها واقناع الرأي العام الاسلامي بأنها والسلطنة شيء واحد فاذا ما استعادت الخلافة اعتبارها بهذا الشكل عمد الى تسخيرها لتكون دعامة ثم قوة دافعة لتحقيق أغراضه السياسية (١) .

ومن ثم رسم عبد الحميد لنفسه سياستين داخلية وأخرى خارجية ، فقد سعى من داخل الدولة العثمانية الى تحقيق مركز السلطان في أذهان رعاياه المسلمين بضربه على الوتر الحساس وهو الدين وأصر على أن سلطته الزمنية تستند الى سلطته الدينية التي تسبغ عليه رداء قدسيا . فهو ظل الله على الارض وأمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين وحامي الدين الاسلامي . . الى غير ذلك من الألقاب التي أراد بها أن يعطى بها نفسه هالة كبيرة .

وقد حمل الكواكبي في عنف على هذه الألقاب التي أضفاها السلاطين العثمانيون على أنفسهم فهو يقول :

« وهؤلاء الغشاشون يغرون حضرة السلطان على هذه اللعawy بما يهرفون به عليه وبما يؤلفونه هم وأعوانهم من الكتب والرسائل

= العثمانية ص ٤٣ وفيه يورد كثيرا من الامايد لهذه النقطة منها عدم اشارة المؤرخ ابن اياس لها لا في صغيرة ولا في كبيرة برغم سرده للفتح العثماني لمصر بالتفصيل .

انطونيوس : يقظة العرب ص ٦٧

التي يعززون بعضها لأنفسهم وبعضها لغيرهم من المنافقين أو لأسماء يسمونها أو كتب يخلقونها فيجعلون تارة آل عثمان العظام يتصلونهم نسبا بعثمان بن عفان رضي الله عنه وأخرى يرفعون نسبهم إلى أغلى قريش ويعطونهم حق الخلافة مرة بالفراغة من العباسيين وأخرى بالاستحقاق والوراثة وآونة بالعهد وأخرى بالبيعة العظيمة وحينما يخدمه الحرمين الشريفين ووقتاً يحفظ المخلفات النبوية وكان هؤلاء الغشاشين يريدون بهذه الدسائس أن يجعلوا حضرة السلطان نظيرهم دعى نسب كاذب كدعواهم لأنفسهم بالسيادة ومتسم مقام موهوم كدعواهم الولاية والقبطانية في أنفسهم وأبائهم وأجدادهم فيحشون في تلك المؤلفات انساباً انتحلوها لأنفسهم مقرونة بنسب حضرة السلطان ويستطردون لحكايات كرامات لأجدادهم ملفقة مخترعة لا يقدمها لهم أحد من المسلمين يدسونها بين حكايات وقائع الخلفاء السلاطين .

« ومن المعلوم عند أهل الوقوف أن التلقب بالخلافة والامامة الكبرى أو امارة المؤمنين في آل عثمان العظام حدث في عهد المرحوم السلطان محمود حيث صار بغض وزرائه يخاطبونه بذلك أحيانا تفننا في الاجلال وغلوا في التعظيم ، ثم توسع استعمال هذه الألقاب في عهد ابنه وحفيده إلى أن بلغ ما بلغه اليوم بسعى أولئك الغشاشين الذين يدفعون ويقودون حضرة السلطان الحالي (يقصد الكواكبي السلطان عبد الحميد) للتنازل عن حقوق راسخة سلطانية لأجل عنوان خلافة وهمية مقيدة في وضعها بشرائط ثقيلة لا تلائم أحوال الملك ومعرضة بطبيعتها للقلقلة والانتزاع والخطر العظيم . . . (١) »

(١) الكواكبي : أم القرى صفحات ٢٠٥ ، ٢٠٦ ط المكتبة التجارية سنة

كان السلطان عبد الحميد يريد بما يضيفه على نفسه من مهابة دينية أن يجد مما تعرضت له الدولة العثمانية على عهد قاصيحت مطمح الطامعين ، كما كان يرمي من وراء الدور الذي اتخذ لنفسه وهو دور الخليفة الورع أن يكسب ولاء المسلمين في داخل مملكته وخارجها خاصة ملايين المسلمين المقيمين في مناطق تابعة لبريطانيا وفرنسا وروسيا وهو أمر لو حققه يزيد مركزه قوة في داخل دولته وفي الميدان الدولي .

وأظهر عبد الحميد في تنفيذ مرماه مرونة لا يتصّبث بمعينها وفهما دقيقا لما تتطلب هذه السياسة فحرص على أن يظهر أمام الناس بمظهر التقى الورع وأحاط نفسه برهط من الفقهاء ورجال الدين الذين كان بعضهم يتمتع بشهرة واسعة ونفوذ كبير فعمد إلى تسخيرهم للدعاية له بل أنه أنشأ معهدا دينيا لتخريج الدعاة (١) . ومالبت أن يبعث بجماعات كثيرة منهم إلى أقصى أنحاء العالم الإسلامي ليبثوا الرعاية والدعوة بالولاء له كخليفة للمسلمين . وأخذ هؤلاء المتعلقون له يصفون عليه من القاب القداسة والتبجيل ما لم يوصف بها غيره فهو الخاقان الأعظم وحامي الحرمين وسلطان البريد والبحرين وظل الله في أرضه إلى غير ذلك من الألقاب . وبلغ اهتمام السلطان عبد الحميد بذلك أنه أراد استقلال موسم الحج للدعوة لنفسه وشرع يبذل المساعدات المالية بسخاء كبير للمدارس الدينية في داخل المملكة وخارجها ، كما سخر الصحافة بنورها فأوجد المجلات التي أخذت على عاتقها السير بالدعوة بتوجيه منه .

وكانت أهم العناصر التي استهدف عبد الحميد كسبها إلى جانبه هم العرب الخاضعين لحكمه ذلك أن جمهرة الترك المؤلفة أكثريتها من فلاحي الأناضول كانت بطبيعتها موالية للعرش بينما

(١) انطونيوس : بقعة العرب ص ٦٨

كان العرب وحب الحرية متأصل في نفوسهم أقل خضوعا . وما زاد في خطورة الامر في نظره أنهم أخذوا يظهر من التصرفات ما يشير الى تفتح الوعي القومي في نفوسهم . ولهذا بذل عبد الحميد جهودا خاصة لكسب ودهم فشكل فرقة ممتازة من الجند العسري ضمها الى حرمه الخاص وبذل المبالغ الطائلة في زخرفة المساجد في مكة والمدينة وبيت المقدس . وفي الوقت نفسه كان عبد الحميد يلجأ الى الوسائل العنيفة كلما وجد ان سياسة الارضاء لا تؤتي ثمرتها المطلوبة . فقد أوفد عددا من الرسل المختارين ليجوبوا العالم العربي في ثياب الوعاظ بينما كانت مهمتهم الحقيقية بذر بذور الشقاق أو تشجيعة بين كبار أمراء العرب واذكاء نار الخلافات القبلية أو المذهبية . كما سعى الى دعوة عدد منهم للاقامة في الاستانة ليكونوا تحت مراقبته ، ومن هؤلاء الشريف الحسين شريف مكة . فقد كانت التقارير التي يتلقاها عبد الحميد من جواسيسه تشير الى نشاط كل أمير أو حاكم وميوله ودرجة ولائه للسلطان . وجاءت التقارير التي تلقاها عبد الحميد عن الحسن تنبئ بأنه شاب عنيد وأنه لا يصرح بما يجول في فكره الا نادرا كما أنه (الشريف حسين) ذو نزعة استقلالية . ولذلك استدعاه السلطان عبد الحميد هو وأسرته الى الاستانة فوصلها عام ١٨٩٣ وهو لا يزال في أوج شبابه . ورافق الشريف حسين أولاده الثلاثة علي وعبد الله وفيصل وحرم عبد الحميد عليهم مغادرة الاستانة وظلوا كذلك معتقلين أكثر من خمس عشرة سنة حتى كانت الثورة التي أطاحت بعبد الحميد سنة ١٩٠٩ فأعادت تعيين الشريف حسين شريفا للملكة .

ومضى عبد الحميد في سياسته التي ترمي الى احكام القبض على العرب فاستعان ببعض ذوي النفوس الضعيفة فقربهم اليه ، ومن هؤلاء عزت باشا العابد وهو عربي من بلاد الشام استطاع أن ينال حظوة كبرى لدى السلطان عبد الحميد عن طريق الكيد والدس

وقضى في خدمته ثلاثة عشر عاما . ولم تنته حظوته الا بسقوط
عبد الحميد . فلقد استطاع العابد أن يصل الى وظيفة سكرتير ثان
وان يصبح من خلال هذه الوظيفة أقوى موظف في الدولة العثمانية
جاها ونفوذا . وكان السلطان وهو يقرب العابد اليه يبغى أن يستغل
دهاءه ومكره في ابلاغه بكل التقارير والمعلومات عن نشاط بعض
العناصر العربية المتحررة والتي أخذت مع استبداد عبد الحميد
تزداد يوما بعد آخر .

ويرى بعض المؤرخين ان فكرة مد خط حديد الحجاز كانت
من بنات أفكار العابد باشا فقد أشار على السلطان عبد الحميد بمد
السكة الحديد من دمشق الى مكة المكرمة . وكان الهدف كما يبدو
أمام أعين العرب والمسلمين هو ظهور السلطان عبد الحميد بمظهر
السلطان المتدين الحريص على تمكين المسلمين من أداء شعائر الحج
ويستندون في ذلك الى أن السلطان عبد الحميد أسند اليه رئاسة
اللجنة التي وجهت نداء الى العالم الاسلامي توضح الدوافع الدينية
« الحميدة » التي أوحى لعبد الحميد بصفته خليفة المسلمين بمد
الخط الحديدي . وطلبت اللجنة من المسلمين الاكتتاب لتغطية
نفقاته . ولاقى النداء قبولا حسنا وفي الوقت نفسه فرضت ضريبة
جديدة في جميع أنحاء المملكة . وبدأ تشييد الخط على يد مهندسين
ألمان سنة ١٩٠٠ ووصل الخط الى المدينة سنة ١٩٠٨ ولم يمتد
بعد ذلك بسبب خلع السلطان عبد الحميد ورفض الشريف حسين
مد الخط من المدينة الى مكة المكرمة للخلاف الذي بدأ بينه وبين
جماعة الاتحاد والترقي الحاكمة .

ولم يكن ما أقدم عليه السلطان عبد الحميد من مد خط حديد
الحجاز عن ايمان واقتناع بقدر ما كان الغرض منه كسب ود الشعوب
الاسلامية عامة والولايات العربية التابعة له بصفة خاصة .

لكن كان هناك من أحرار العرب من كشف كل الاعيب السلطان
عبد الحميد وحيله ودهائه ورأي سياسته منكرا يجب التصدي له
بالقول والعمل وكان علي رأس هؤلاء كاتينا الكبير عبد الرحمن
الكواكبي .

الفصل الثاني

موطن الكواكبي ونشأته الأولى

ينبغي لمن يؤرخ لموطن الكواكبي أن يتناول بالدراسة سوريا بصفة عامة وحلب بصفة خاصة تحت حكم العثمانيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

من المعروف أن الحكم المصري للشام (خلال عهد محمد علي) قد أحدث تغييرات جوهرية واصلاحات جذرية مهدت السبيل كي تصبح هذه البلاد الارض الصالحة والبيئة المناسبة لبداية الحركة العربية في عصرها الحديث . ورغم قصر العهد المصري بالنسبة للعهد العثماني الطويل في بلاد الشام فقد أرسيت فيه قواعد جديدة للحكم لم تكن معروفة من قبل ، اذ أنهى ابراهيم باشا عهد الحكم السطحي ، وبدأت الدولة التدخل في شئون التعليم والقضاء والمواصلات والاحتساب والصحة العامة . كما ازدادت الدولة دقة وحزما في تنفيذ قراراتها وسيطرت بشكل فعال على التجارة لا سيما التجارة الخارجية وتدخلت في تنظيم الزراعة والصناعة وتوجيهها في خدمة أغراض الدولة . ولم يعد التجنيد وجباية الاموال أمورا شكلية يمكن التهرب منها بالمقاومة أو بشيء من الرشوة . وأحس الشعب كله أثر هذه الاصلاحات لا سيما المسيحيين منهم . فلقد ألغى ابراهيم القيود المفروضة على أزيائهم المميزة وأباح للافرنج دخول مدينة دمشق راكبين ، وسمح لهم بتأسيس قنصليات فيها ورفع أعلام تحمل شارة الصليب . كذلك اعتمد على كثير من المسيحيين أمثال بطرس كرامه وحنا

البحرى وعهد اليهم بادخال تنظيمات أفرنجية وترتيب مجالس ملكية ومدنية وعسكرية ونظامات حديثة (١) .

وساوى ابراهيم باشا بين جميع افراد الشعب أمام القانون لا فرق فى ذلك بين مسيحي أو مسلم أو يهودى ولم تكن هذه المساواة موجودة من قبل ومن أهم ما أدخله ابراهيم باشا الى جانب العمل على توطيد سلطة الحكم المركزى والقضاء على سلطة الافراد والرؤساء الاقطاعيين أنه أخذ بمبدأ الشورى فى حكم البلاد فألف فى كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسمة مجلس يسمى (ديوان المشورة) يتراوح عدد أعضائه بين ١٢ ، ٢١ عضوا ينتخبون من بين نبهاء (أعيان) البلاد وتجارها . ومما لا ريب فيه أن هدف هذه المجالس كان خدمة الحكومة المركزية وتيسير مهمتها ومعاونتها فى تحصيل الاموال المطلوبة (الميرى) ، لكنها كانت بلا شك مقدمة على طريق تعويد الاهالى أسلوب الحكم الشورى (٢) .

وكان تعيين ابراهيم باشا لبعض السوريين فى هذه المناصب الكبيرة دليلا على حد اعتراف الكثير من المؤرخين والأوربيين منهم بوجه خاص على رغبته فى اسناد كبار المناصب الى أبناء البلاد وهو ما لم يكن مألوفا فى عهد الادارة التركية . فكتب لويس بلان فى كتابه (تاريخ عشر سنوات) ! يقول : اذا اردنا ان نعرف ما افادته سوريا من انتقالها من الحكم التركى الى حكم المصريين فما علينا الا أن نلقى نظرة على سهول انطاكية التى اكتست بأشجار الزيتون وضواحي بيروت التى كثرت فيها الكروم والنشاط الذى انبعث فى حلب ودمشق . صحيح ان محمد على أظهر قسوة فى حكم سوريا ، ولكن فى ظل هذا الاستبداد العارض الذى كان ضرورة ولزاما حيث

(١) غرايه عبد الكريم سورية فى القرن ١٩ ص ٥٨

(٢) الرافعى : عصر محمد على ص ٢٩٩

سادت القوضى في تلك البلاد ، ألغت سوريًا النظام
العمران • • (١)

فأكد بعض المؤرخين والرحالة الذين زاروا سورية في عهد
الحكم المصري أنه اذا بقيت أعمال الأمن وبقي الأمن الذي بسطه فان
حالة البلاد ستتطور تطورًا كبيرًا • واعترف السوريون أنفسهم
والادباء والمؤرخون منهم بوجه خاص بذلك • فقد كتب سليمان
أبو عز الدين أحد أدباء سوريا في كتابه «ابراهيم باشا في سورية»
يقول : لابراهيم باشا فضل خاص في السنتين الأولى بعد الفتح في
ضبط الاحكام وشدة مراقبة الحكام واجراء العدل بين الاهل •
وكان شديد الوطأة على المستخدمين الذين يحدون عن السبيل
القوم ، فعاقب كثيرا منهم بالطرذ والضرب والحبس للاعتداء على
أهل البلاد أو عدم النزاهة وغير ذلك مما يخرج عن جادة الاستقامة
فلو استمرت حكومة محمد علي في سوريا ناهية هذا المنهج القويم
لملكت قلوب الاهل •

والأمر الذي لا شك فيه ان وجود الحكم المصري في سورية
قد مهد السبيل لنهضة علمية أدبية فقد سهل الطريق لقدم
الافرنج والمبشرين الذين بدأوا في انشاء المدارس • فلقد فتحت
سياسة التسامح الديني التي اتبعها ابراهيم باشا في حكمه لبلاد
الشام الباب أمام بعثات التبشير المسيحية الغربية وخاصة البعثات
البروتستانتية الأمريكية والكاثوليكية الفرنسية • ومما لا شك
فيه ان جهود هؤلاء المبشرين في فتح المدارس في بلاد الشام كانت
أحد الأسباب الهامة التي جعلت بلاد الشام تشهد قبل غيرها من
البلاد بقظة عربية كانت بداية لحركة بعث كبيرة في العصر
الحديث على نحو ما سنتناوله عند حديثنا عن دور الكواكبي في
اليقظة العربية الحديثة •

(١) الرافعي : عصر محمد علي ص ٣٠٠ •

ولقد أشاد الكواكبي بنفسه بالنهضة التي أحدثها محمد علي وإبنه إبراهيم وذلك في كتابه أم القرى فهو يقول : « حتى أن النهضة العثمانية بكل فروعها مسبوقه في مصر ومقتبسة عنها بل كما يعلم العارفون إنما تقدمت الدولة العلية العثمانية ببعض خطوات في ميدان المدنية والعمران مدفوعة بأيدي المرحومين محمد علي وإبراهيم » (١)

ثم كان أن انتهى الحكم المصري للشام بموجب معاهدة لندن يوليو ١٨٤٠ حيث أجبر محمد علي على الانسحاب من سوريا والحجاز ونجد واليمن وسواحل الخليج العربي وتقلصت امبراطوريته الى حدود مصر والسودان .

ورأود الأمل أولئك الذين ساءت لهم اصلاحات إبراهيم في سوريا أن الحكم العثماني سيكون كما عهدوه من قبل رخوا سهلا فاسدا ضعيفا غير محكم قبضته على المحكومين . لكن آمال هؤلاء خابت بعد أن أدخل العثمانيون تنظيمات تشبه التنظيمات المصرية دون أن يقضوا على القواعد القديمة خالقين بذلك ازدواجا في النظم . وحافظت الدولة العثمانية على التقسيمات والنظم الادارية التي كانت قائمة من قبل في سورية . فقد بقيت سورية مقسمة الى ولايتين رئيسيتين هما ولاية حلب ودمشق وظلت ولاية صيدا قائمة في أول الأمر ولكن جعلت بيروت عاصمة لها (٢) .

ثم نقصر الحديث على عهد العثمانيين ذلك أنها كانت موطن الكواكبي المكان الذي نشأ فيه وعاش زهرة أيامه .

كانت ولاية حلب تمتد امتدادا كبيرا في المناطق التي أصبحت حاليا تابعة للجمهورية التركية . فقد كانت تتكون من ألوية ثلاثة

(١) الكواكبي : أم القرى ص ١٨٩ طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٢١

(٢) غرايه : سورية في القرن ١٩ ص ٥٨ وما بعدها .

ثم يبق منها تابعا لسورية الا اجزاء من لواء واحد . وحرصت الدولة العثمانية ألا يستقر على حكم حلب أحد من الولاة لفترة طويلة فلقد حكمها ثلاثون واليا في مدة ثلاثين سنة وذلك منذ جلاء ابراهيم باشا بقواته عنها الى اعلان الدستور الأول على عهد السلطان عبد الحميد أى من سنة ١٨٤٠ - سنة ١٨٧٦ . بل بلغت مدة حكم بعضهم حلب ستة أيام . وكان من شأن ذلك عدم الاستقرار وعدم حرص أحدهم على رفاهية الولاية أو العمل على ادخال أى نوع من الإصلاح فيها . وسكن مدينة حلب فى هذا العهد حوالى مائة ألف نسمة خمسهم من المسيحيين وثمانية ألف منهم من اليهود . كما عاش فيها عدد كبير من الافرنج ولعبت الطوائف المسيحية وانيهودية دورا بارزا فى حياة حلب أكثر مما لعبوه فى دمشق . فقد سيطر يهودوها على عمليات الصرافة وأكثر التجارة الخارجية والصناعات . وكان أكثر القناصل منهم لا سيما من عائلة مركوبولى الذين كان منهم قناصل اسبانيا ودويلات ايطاليا . وكثيرا ما استثار هؤلاء اليهود المسلمين والمسيحيين لسيطرتهم على أمور القوافل التجارية وحملوهم على الاستراحة يوم السبت وتلاعبوا بأسعار النقد .

وانقسم المسيحيون فى حلب الى عدة طوائف كل واحدة برعاية أحد القناصل ، وقام القنصل الفرنسى برعاية الموارنة والروم الكاثوليك كما أقام الانجليز علاقات قوية مع الارثوذكس وتزوجوا منهم ودفنوا موتاهم فى مقابرهم بل أقام عدد من الانجليز فى حلب كعائلة باركر التى تزوج عدد من أفرادها من فتيات أرثوذكسيات . لكن النفوذ البريطانى لدى الانجليز أخذ يتقلص نوعا ما بعد أن برزت روسيا حامية للأرثوذكس . وأما مسلمو حلب فقد اشتهر عنهم عدم التعصب وتحسن معاملتهم للغير مما جعل مدينتهم مركزا لنشاط الاجانب المسيحيين طوال العهد العثماني . وغدت مدينتهم ملجأ المضطهدين من المسيحيين حتى فاق عددهم

فيما بعد عدد سكان البلد الاصليين من المسلمين . ولكن أهل حلب الرجاء ياخوانهم المسيحيين كانوا أشداء مع السلطات العثمانية فتحدوها أكثر من مرة . ومما ينبغي ذكره ان عام ١٨٥٠ شهد ثورة عارمة قام بها أهل حلب ضد السلطات العثمانية . وكان متسلم حلب واسمه عبد الله البابنسي الانكشاري الاصل قد شغل هذه الوظيفة ابان حكم ابراهيم باشا وبقي في منصبه خلال السنوات العشر الاولى من الفترة التي تلت انتهاء الحكم المصري لبلاد الشام . وكان ينافس عبد الله في منصبه يوسف باشا شريف زاده (من الأشراف) . وكان عبد الله ومنافسه من الشخصيات التي انتزمت بجمع الاموال الاميرية دون أن يدفعوا كل ما جمعهما لخزانة الدولة وتراكت عليهما أموال كثيرة فطالبتهما الدولة بالدفع وهدد الوالي بمصادرة أملاكهما . ورأى الحصان أن من مصلحتهما الاتفاق واثارة فتنة تجبر الوالي على تناسي الاموال المتأخرة وتدفعه الى الاعتماد عليهما وعلى أعوانهما لاختاد الفتنة . فاشاعوا بواسطة عملائهما أن الدولة عازمة على اتخاذ عدد من الاجراءات الجديدة من بينها تجنيد الشباب . وأدى ذلك الى ثورة على الدولة وهاجم بعض عامة الناس مقر الثكنة العسكرية . وعبثا حاول الوالي اخماد الفتنة وسارت الجموع خلال الليل الى بيوت الأعيان للانتقام منهم لأنهم لم يحاولوا حماية الشعب من هزائب الحكومة . ونتيجة لذلك فر الأعيان ولجأوا الى الثكنة العسكرية ، ثم تلا ذلك أن قصد الناس الحى المسيحي ليأخذوا من المسيحيين مالا يشترون به أسلحة يجبرون بواسطتها الدولة على الغاء الضريبة والجنديّة (١) . ولم يكن هدف ثوار حلب الاعتداء على المسيحيين ولكن زعماء الثورة اعتقدوا أن من صالح المسيحيين دفع هذه الاموال شأنهم

(١) كامل الغزى : نهر الذهب في تاريخ حلب ج ٣ من ٣٦٦ الفتنة المعروفة

بقومة حلب .

شأن المسلمين من أهالي حلب، ولكن فراز بطريك الروم الكاثوليك من وجه الثوار والتجأه إلى القناصل أثار الثوار ودفع بعضهم إلى الخي المسيحي يخيرون . ثم كان أن تبادل الثوار الرسل مع الوالي الشيء تظاهر بالاستجابة لمطالبهم وطلب إرسال رسل للمفاوضة . ولما أن جعله الرسل حتى اعتقلهم في القلعة فأعلنت الثورة مرة ثانية وأطلق الثوار النار على القلعة فرد الجند بإطلاق النار على الثوار الذين لم يستكينوا وجاءت جموع الأعراب إلى حلب لتأييد الثورة . لكن نقاد الذخيرة من يد الثوار مكن الجند من السيطرة على الموقف وقبض على زعماء الثورة ونفى عدد منهم .

وهذا يدل على أن أهل حلب اشتبهوا بعدم الرضا والامتنان والاستكانة للضيم والرضا بالامر الواقع وعدم قبولهم لمساوي الحكم العثماني ، فقد كانوا قوما أباة ثائرين لا يرضون بالاستبداد والتسلط الذي اشتهر به العثمانيون .

وكان من بين أبناء حلب انثى بز غيره في الثورة على الضيم وعدم الرضا والمجاهرة بعدائه صاحب هذه الترجمة المرحوم عبد الرحمن الكواكبي .

نسبه :

يري المؤرخون ان الكواكبي ينتهي نسبه الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويذكرون في شجرة هذا النسب علمين من اردبيل (من أشهر مدن أذربيجان) هما صفى الدين الأردبيلي وصهر الدين الأردبيلي ويقولون ان من أحفاد الشيخ صفى الدين الأردبيلي رجلا يسمى (علي سياه بوش) خرج الى بلاد الروم ولما وصل الى حلب بقى فيها وتزوج من حلبية ثم رجع الى بلاده ومن ذريته كان آل الكواكبي .

ويذكر المؤرخون كذلك ان نسب هذه الأسرة من جهة الأم يتصل بمحمد الباقر بن علي زين العابدين بن الامام الشهيد الحسين رضي الله عنه . .

ويقول المؤرخون ان أول من انتقل من هذه الأسرة الى حلب واستقر بها هو محمد أبو يحيى الكواكبي وأنه كان حدادا يعمل بالمسامير (وهي ما تسمى في المعاجم وما يعرفها بعض الناس باسم الكواكب) ومن هنا عرف باسم الكواكبي واشتهر بتدينه وتقواه حتى كان الناس في حلب يقبل عليه تلتبس منه الدعاء لها بقضاء الحاجات ودفن في المسجد الذي أصبح يعرف بجامع الكواكبي وهو المسجد الذي ضم رفات آل الكواكبي من بعده .

أما أبوه فهو أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي اشتهر عنه غزارة علمه وسعة اطلاعه فقد تلقى تعليمه في الجامع الأعزى على شيوخ العصر في حلب في ذلك الحين حتى أصبح متفهما في دينه وضار من أجل ذلك أعظم علماء حلب في العلوم الشرعية والفقهية وكان أدق علماء عصره في حلب في مسائل الفتوى وباقي العلوم الدينية . كان لا يقصده أحد في حاجة إلا قضاها له ومجبا للصدقات الحفية كريم الطبع متفضلا على الاخوان والحلان ، مع أنه ربما مضى عليه الشهر وهو خال من النقود ، وقد امتنيت في قضاء حلب مدة بعد الحاج الوالي عليه ، ففرح به الناس وحسم أكثر دعاواهم صلحا برضا الطرفين . .

وعاش أحمد الكواكبي والد كاتبنا عبد الرحمن عيشة كلها تقوى وعلم وحب للخير واصلاح بين الناس حتى توفي سنة ١٨٨٢ ميلادية ودفن في جامع الكواكبي وقد أنجب ولدين أكبرهما عبد الرحمن وأخوه مسعود الكواكبي الذي عمل عضوا بمجلس المبعوثين العثماني (النواب) ومحكمة التمييز بدمشق وعضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق .

مولده ونشأته الأولى :

يؤكد كثير من المؤرخين أن الكواكبي ولد سنة ١٨٤٨ ميلادية لكن ابنه الدكتور أسعد الكواكبي في البحث الذي نشرته له مجلة الحديث بحلب سنة ١٩٥٢ ميلادية بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته يذكر أن والده قام بعملية تصحيح لسنه فجعل مولده سنة ١٨٤٨ حتى يصبح سنه مطابقا لما تتطلبه عملية الانتخابات في حلب . والانتخابات التي يشير اليها الدكتور أسعد الكواكبي هي عملية انتخاب مجلس المبعوثين الذي تقرر اجراء الانتخابات بشأن اختيار أعضائه بموجب القانون الأساسي (الدستور) الذي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني في ٧ ذو الحجة سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) حيث اشترط بموجب المادة ٦٨ من هذا القانون ألا تقل سن المرشح لمجلس المبعوثين عن ثلاثين سنة .

لكننا لا نجد بالرجوع الى قوائم اعضاء مجلس النواب العثماني الذي تم انتخابه على عهد السلطان عبد الحميد الثاني والذي عقد جلسته الأولى في ١٩ مارس ١٨٧٧ اسم عبد الرحمن الكواكبي (١) . كذلك لا نجد في ترجمة حياته ما يشير الى دخوله انتخابات هذا المجلس ، ولا نعرف السبب الذي من أجله أحجم الكواكبي عن خوض غمار هذه الانتخابات بعد أن قام بتصحيح سنه على حد قول ابنه أسعد الكواكبي . لعل السبب في ذلك هو شعور السيد عبد الرحمن الكواكبي ان الحياة النيابية التي قررت الدولة العثمانية العمل بها على عهد السلطان عبد الحميد الثاني لم تكن عن اقتناع وإيمان من جانب المسئولين العثمانيين بقدر ما هي خطوة اتخذت لمواجهة أحداث خارجية طارئة واجهت الدولة العثمانية . وآية ذلك ان مدحت باشا (أبو الدستور وضاحب فكرته) نفى من البلاد العثمانية قبل ان يجتمع مجلس المبعوثين للمرة الأولى .

مضمونها الرئيسى اذا فى تحديد تاريخ ميلاد عبد الرحمن الكواكبي هو ما ذكره ابنه أسعد حين ذكر ان والده ولد بحلب سنة ١٨٤٨ ميلادية .

وعندما بلغ عبد الرحمن الكواكبي السادسة من عمره توفيت أمه السيدة عفيفة بنت مسعود آل النقيب وكانت من أسرة رفيعة المقام . فقد شغل أبوها منصب مفتى انطاكية . وعلى اثر وفاتها كفلته خالته السيدة صفية بنت مسعود النقيب حيث اقام معها فى انطاكية وكانت سيدها اشتهرت بنبوغها وذكائها ، علمته اللغة التركية ومبادئ القراءة والكتابة . ثم كان ان استدعاه والده ليقوم معه فى حلب حيث عني بتعليمه العلوم العربية والتركية والفارسية . لكنه لم يلبث أن سافر مرة ثانية الى انطاكية سنة ١٢٨١هـ (١٨٦٤م) حيث تتلمذ على يد أستاذين فاضلين من أقاربه العلامة عبد الرحمن العليبي والسيد نجيب النقيب عم والدته . وكانت شهرتهما قد جاوزت الآفاق ، فقد عين الحديو توفيق السيد نجيب النقيب مربيا لابنه عباس حلمي .

لكن اقامة عبد الرحمن الكواكبي بانطاكية هذه المرة لم تطل ذلك أنها لم تتجاوز العام ، فعاد الى حلب ليقوم مرة أخرى مع وائده وليحقه بالمدرسة الكواكبية .

وكانت احدى مآثر أجداد الكواكبي اقامتهم مدرسة لتعليم العلوم الشرعية سميت بالكواكبية نسبة اليهم .

عاد الكواكبي ليلتحق بهذه المدرسة التى كان أبوه آنذاك مديرها وأحد أساتذتها الأفاضل . فقد ذكر السيد كامل الغزى ان الشيخ أحمد (والد عبد الرحمن الكواكبي) كان من أجل علماء حلب فى العلوم الآلية وأدقهم نظرا فى مسائل الفتوى وباقى العلوم الدينية

تلقى تعليمه على يد والده الغزي . وفي المدرسة الكواكبية كان
الشيخ أحمد يلقى دروسه التي حضرها وتعلمه عليه ابنه عبد الرحمن
فأجاد اللغة العربية والعلوم الشرعية . كما تلقى الكواكبي فيها
مبادئ العلوم الرياضية وغيرها من العلوم الحديثة وما أن بلغ
الكواكبي الثانية والعشرين من عمره حتى بدأ يكتب في جريدة الدونة
الرسمية في حلب وكانت تسمى قرات . وكان المؤرخ التركي أحمد
جودت باشا قد أسس هذه الجريدة سنة ١٨٦٧ م حين كان والياً على
حلب وجعلها بعنوان غدير القرات وظلت سنتين تصدر بهذا
العنوان ، ثم حذفت كلمة غدير وأصبحت (قرات) فحسب يميننا
بفيض النهر (نهر القرات) (١) الذي عاش الحلبيون قروناً ينتظرون
قدومه اليهم . (١) وكانت هذه أول صحيفة اسبوعية تصدر في عاصمة
ولاية حلب ، هدفها نشر أخبار الولاية وأوامر الحكومة وإعلاناتها .
وقامت مطبعتها التي كانت المطبعة الثانية بعد المطبعة المارونية بطبع
مطبوعات الحكومة المختلفة . ومن المرجح أن تكون معدات المطبعة قد
أرسلت من الأستانة هي وحروفها شأنها في ذلك شأن معظم المطابع
الرسمية التي انشئت في الولايات العثمانية . (٢)

وصدر العدد الأول من هذه الجريدة في ٢٣ من محرم ١٢٨٤ هـ
الموافق ٢٧ مايو سنة ١٨٦٧ بإدارة جبرائيل برغود بالعربية
والتركية والارمنية ثم اقتصرت منذ العدد الواحد بعد المائة على
العربية والتركية فقط .

ظل الكواكبي يعمل فيها خمس سنوات ثم تركها سنة

(١) عبد الكريم غرايبه : سورية في القرن ١٩ ص ٢٤٨ وكذلك شامي
الدعان : الكواكبي ص ١٩
(٢) خليل صابات : تاريخ الصحافة في الشرق العربي ص ٩٨

١٨٧٨ (١) ليحرز في جريدة سماها الشهباء بالاشتراك مع
هاشم العطار (٢) .

وكانت هذه الصحيفة أول معلن اذاع بين الناس عبقريه
الكواكبي وكشف لهم ما كان عليه من المنزلة الرفيعة في عالم الأدب
والسياسة ولذا اغتبط الناس بهذه الصحيفة واقبلوا عليها أيضا
اقباله غير أنهم لسوء الحظ لم يتمتعوا باستجلاء محاسن هذه البكر
الوحيدة سوى أيام قليلة حتى فاجأها القدر بانقضاء الأجل (٣) .

وكانت صحيفة الشهباء هذه أسبوعية ثنائيا شأن الفرات
لكن (الشهباء) امتازت بأنها أحسن تبث في الناس روح العزة
وتحیی منهم موات الأمل ، لكن وإلى حلب كامل القبرضي الذي أصبح
صدرا أعظم للدولة العثمانية فيما بعد ، كان يكره حرية الصحافة
فبادر إلى تعليق هذه الصحيفة بعد أن بدأت تشير إلى استبداد
السلطان عبد الحميد من طرف خفي . واستجاب الكواكبي لقرار
إغلاقها فمطّلها بعد صدور ثلاثة أعداد منها (٤)

لكن الروح الحرة التي تجسست في شخصية الكواكبي لا يمكن
أن تياسن لأن اليأس ليس من شيم النفوس الأبية الضاممة في وجه

(١) يقول الأستاذ كامل الغزي : نهر الذهب في تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٩٢
أنه تولى أمر الترجمة لجريدة الفرات بعد أن تركها فقيه الوطن السيد الفاضل
عبد الرحمن الكواكبي وظل الغزي يتولى الترجمة من التركية إلى العربية في
هذه الجريدة مدة ٢٠ سنة بعد ترك الكواكبي لها .

(٢) يقول الأستاذ غراييه (سوريا في القرن ١٩) ان تاريخ صدور هذه
الجريدة ١٠ - ٥ - ١٨٧٧ ويؤكد كذلك فيليب دي طرازي بينما يذكر مساهمي
الدمان نقلا عن راعب الطباخ ان الكواكبي أنشأها سنة ١٨٧٨ م .

(٣) كامل الغزي : مجلة الحديث حلب ١٩٢٩ العدد السادس وتاريخ
ما أمهله التاريخ من سيرة عبد الرحمن الكواكبي بطل الحرية وفقيد الشرق
ص ٤٠٤ وما بعدها .

(٤) عبد الكريم غراييه : سورية في القرن ١٩ ص ٢٤٨

الطغيان والاستبداد . فما كادت صحيفة الشهباء التي اصدرها الكواكبي تعطل ، حتى اصدر صاحب امتيازها غيرها سماها جريدة (الاعتدال) في ٢٠ يوليو ١٨٧٩ باللغتين العربية والتركية وفوض تحريرها للكواكبي (١) . وجعل الكواكبي أحد الأهداف الأساسية لهذه الصحيفة الكشف عن سيئات المأمورين (الموظفين) وعرض حاجات البلد وتوسيع دائرة المعارف (٢) .

لكن هذه الصحيفة التي اختلفت عن غيرها من الصحف فهي لا تكيل المديح للسلطان ولا تخلع عليه من الألقاب ما تخلعه غيرها من الصحف والتي تصدت للكشف عن سيئات الموظفين وتعريف الناس بحقوقهم ، كانت كفيلة أن تلقى من والى حلب جميل باشا ما لقيته الصحيفة السابقة (الشهباء) على يد سلفه كامل القبرصي . فعطلت الصحيفة الجديدة مثلما عطلت سابقتها ، فقد كان الكواكبي أول صحافي حليي يحزر في الصحف مقالات اجتماعية وبحوث في شتى المجالات يختلف عما يكتبه غيره في الصحف الأخرى التي اقتصرت ما احتوته على البيانات الرسمية أو البلاغات الحكومية .

وترك الكواكبي الكتابة في الصحافة حينما ليتولى عددا من المناصب الادارية فقد عين من قبل في ٩ مارس ١٨٧٩ عضوا فخريا في لجنتي المعارف والمالية بالولاية . ثم عين بعد عام عضوا فخريا كذلك في الأشغال العامة كما تولى منصب مأمور للأجراء (رئيسا لقلم المحضرين) في ولاية حلب ثم عضوا فخريا كذلك في لجنة امتحان المحامين . وحين بلغ التاسعة والعشرين من عمره عينته الحكومة مديرا فخريا لمطبعة الولاية الرسمية في حلب في سنة ١٨٨١ ميلادية (١٣٩٧ هـ) ثم رئيسا فخريا للجنة الأشغال العامة ثم

(١) كامل القزى : مجلة الحديث العدد السادس سنة ١٩٢٩

(٢) المصدر السابق ص ١٨٤

عضوا في محكمة التجارة بولاية حلب بناء على أمر من وزارة العدل العثمانية . وفي سنة ١٨٨٦ عاد الكواكبي ليشغل وظيفة مأمور الأجراء وهي الوظيفة التي كان يشغلها من قبل .

وعرف عن الكواكبي في كل وظائفه اننى تولاها نزاهته وجديته في عمله واصراره على نصرته الحق والحرص على مصالح الجماهير ايمانا منه أن الموظف خادم للشعب وليس سييدا على الناس . كما عرف عن الكواكبي كرهه للنفاق والتصدي للاستبداد والعمل على ذلك صروح الظلم وكان ذلك كله مفهوما جديدا غير مألوف لدى الجمهرة الغالبة من الموظفين الذين كانوا يرون الوظيفة سبيلا الى جاه وسؤدد . وحين الوقت الذي خشي فيه والى حلب (جميل باشا) من الكواكبي وبدأ يراقب حركاته خاصة حين علم أن جميع ما تصدره صحف الاستانة وبيروت من طعن فيه مستمد من قلم الكواكبي وبايعاز منه . وحين انعدم التعاون بين الكواكبي ووالى حلب ، لم ير الكواكبي بدا من الاستقالة من وظائفه مؤثرا أن يخدم الناس عن غير طريق الوظيفة الحكومية .

ففي سنة ١٨٨٦ فتح انكواكبي مكتبا للمحاماة لكنه كان متلقى لأصحاب الحاجات والمتظلمين والمساكين يسرون اليه بشكاواهم . فالمعروف أن الكواكبي أحب البؤساء والضعفاء حتى لقب في حلب بأبى الضعفاء . وجاء في جريدة الرائد المصرى أنه (الكواكبي) كان له في بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهاره لرؤية مصالح الناس وينعث الى المحاكم من يأمنهم من أصغابه ليدافعوا عن المظلومين والمستضعفين . ومع تمسكه بالاسلامية والمطالبة بحقوقها والاستهلاك في سبيل نصرتها ، كان بعيدا عن التعصب يستأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودى على السواء ، لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة . (١)

(١) مارون عبود : رواد النهضة الحديثة ص ٢٠٢

ومما لا شك فيه ان ممارسة الكواكبي لوظائف القضاء هي التي جعلت من حقه ممارسة المحاماة كما كان متبعاً في ذلك الحين فضلاً عن ان دراسته القانونية الواسعة التي اكتسبها بالمطالعة والخبرة والمران قد أفادته كثيراً في عمل كمحام فأصبح ناجحاً في هذا المجال . وقال السيد رشيد رضا في ذلك ان الفقيه (الكواكبي) درس قوانين الدولة درساً دقيقاً وكان محيطاً بها يكاد يكون حافظاً لها ، وله انتقاد عليها يدل على دقة نظره في علم الحقوق والشرائع ، ولهذا عينته الحكومة في لجنة امتحان المحامين ، ولا أعلم أنه برز في فن أو علم مخصوص فاق فيه الأقران ، ولكنه تلقى ما تلقاه من أكل فن بفهم وعقل بحيث إذا أراد الاشتغال عملاً وتأليفاً أو تعليمياً يتسنى له أن ينفع نفعاً لا ينتظر من الذين صرفوا أعمارهم في أن الفقيه لا يتعلم شيئاً من علوم النفس والأخلاق والسياسة وطبائع الملل والفلسفة في مدرسة ، وإنما عمدته في هذه العلوم ما طالعه منها من المؤلفات والجرائد التركية والعربية ، (١) وأصبح مكتب الكواكبي المحامي مقصداً للمتظلمين ومعقداً ورجاءاً للمتظلمين . وكان من شأن ذلك أن يقض مضجع الوالي خاصة وأن الكواكبي أخذ يدل أصحاب الحاجات وأولئك الذين لم ينصفهم الوالي أو غبن حقوقهم - كيف يستردون حقوقهم منه وكيف يتصدون له مطالبين بحقوقهم المسلوقة . ومن ذلك تلك القضية المشهورة في ذلك الحين قضية ورثة مصطفى كخيا طلب الوالي منهم رشوة قدرها خمسة آلاف ليرة عثمانية ذهباً فامتنعوا عن دفعها فحرض الوالي الفلاحين المستأجرين لأرضهم عليهم ، ولجأ الورثة الى الكواكبي يسألونه الرأي فكان ان وقف معهم يسطر لهم ظلامتهم الى الباب العالي حتى ورد الأمر بإطلاق سراح من كان الوالي قد اعتقله منهم . وقويت شوكة المتظلمين من الوالي بعد هذه

(١) قدرى قلعجي - عبد الرحمن الكواكبي سلسلة أعلام الفكر العربي

الحادثة فكثرت عددهم وقصدوا الكواكبي الذي أصبح بالنسبة لهم ملجأ وملأذا .

وكثرت شكاوى الشاكين من الوالى والكواكبي يسيطر لهم هذه الشكاوى بأسلوب بارع مثير حتى اضطر السلطان عبد الحميد الثانى برغم حبه للوالى أن يرسل مندوبا من طرفه للتحقيق فى تلك الشكاوى بغية استرضاء أهل حنب وكسب مودتهم للسلطنة العثمانية . وكان المندوب اسمه صاحب بك رئيس دائرة المحاكمات فى شورى الدولة وأصبح فيما بعد شيخا ناسلام . وقد وصل الى حلب ومعه لجنة من المحققين أقاموا فى حلب مدة تزيد على الشهرين ينظرون فى الشكاوى المقدمة من خصوم الوالى وكلها محررة بقلم الكواكبي . وكان السخط من جانب افراد الشعب فى حلب قد بلغ منتهاه ضد الوالى فتصادف اثناء وجود مندوب الباب العالى فى حلب ان اعتدى محام أرمنى على الوالى فى ساحة باب الفرج فى ١٦ صفر ١٣٠٤ هـ (الموافق منتصف نوفمبر ١٨٨٦ م) وذلك بأن اطلق عليه عيارا من مسدسه ولكنه أخطأ فقبض عليه وأرسل الى السجن وحكم عليه بالحبس مدة خمسة عشر عاما . وأرادها الوالى فرصة يتخلص فيها من أعدائه وفى مقدمتهم بطبيعة الحال عبد الرحمن الكواكبي فقبض عليه وأودعه السجن . ويقول السيد كامل الغزى فى شرحه لهذه الحادثة التى شغلت أذهان الناس فى ذلك الحين « ولكن صاحب بك مندوب الباب العالى أبرق الى الاستانة يقول « أنا عازم على الشخصوخ الى الاستانة لأننى لا أستطيع البقاء فى بلدة لا يعرف فيها نظام ولا قانون ، وأبرق محمد على باشا قائد الجندية (فى حلب) الى مقام الشيرية العسكرية يقول ما معناه أننى غير مستول عما اذا حدث فى حلب ما يخل بالسلام لأننى لم يبق لى نفوذ على القوة العسكرية . » (١) .

(١) كامل الغزى مجلة الحديث العدد السادس ١٩٢٩ ويشرح الغزى كيف =

ولما اطلع السلطان على هاتين البرقيتين رأى ان الامر قد تفاقم فاصدر أمره بتنحية جميل باشا عن ولاية حلب وارسله وانيا على الحجاز وأفرج عن المسجونين وعين عثمان باشا الأعرج وكان مقعدا يحمل على كرسي ليصل الى مكتبه .

وما كاد الوالى الجديد يصل الى حلب حتى عين الكواكبي بعد برهة من الزمن رئيسا لبلديتها وكان مجلسها البلدى على حد قول كامل الغزى فى غاية الانحطاط وسوء الادارة . فتفتقت عبقرية الكواكبي عن عديد من وجوه الاصلاح المختلفة ، ومن ذلك أنه وضع حواجز على مدينة حلب تمنع الجمال المحملة بالبضائع من الدخول الى قلب المدينة وما كان يسببه دخولها من عدم نظافة الشوارع وازدحامها . كذلك فكر فى انشاء مرفأ للسويدية ومد خط حديدى منها الى حلب . كما قام بتجفيف المستنقعات المحيطة بها حتى يقضى على البعوض والأمراض التى يسببها . ومن أهم ما فكر فيه الكواكبي أنشاء توليه رئيس بلدية حلب هو توليد الكهرباء من نهر العاص وذلك بواسطة شلال يحدثه من مياه النهر .

ثم تولى الكواكبي رئاسة غرفة التجارة والمصرف الزراعى فى حلب فأصلح شئونهما ووضع جداول احصائية تشهد على المامه الكبير بشئون الاقتصاد ومسائل العمران .

لكن الكواكبي تعرض قبل ذلك لازمة ثانية انتهى الأمر فيها بسجنه مثلما سجن من قبل على عهد الوالى جميل باشا .

وذلك ان والى حلب نقل وجاء مكانه (سنة ١٣٠٧هـ) ١٨٩٠م عارف باشا د سماء أهل حلب (عارف صحيفة) لأنه أتخذ له من

= عومل الكواكبي معاملة سيئة فى السجن فحبس حبسا منفردا ووقف على باب غرفته جنديان مسلحان .

أعضاء مجلس إدارة الولاية وكبار موظفيها اصحابا يخرجون معه في بعض أيام الأسبوع في إحدى متنزهات البلدية بقصد الترويح ويأتي كل واحد منهم بصحن فيه لون من الطعام لذيذ ولما كان الوالي يكثر من هذه الوليمة . فلقبه الحلبيون بعارف صحيفة ، (١)

ولما كان هذا الوالي فاسدا مرتشيا فقد تصدى له الكواكبي يتتبع سقطاته ويندد به في صحف الاستانة وبيروت وصار الوالي ينتظر الفرصة المناسبة لينتقم فيها من الكواكبي .

وواتته هذه الفرصة حين حدث في أحد الأيام ان كان قنصل إيطاليا بحلب وهو المسيو « أنريكو ويتو » وهو يمر في محلة الجلوم أحد أحياء حلب حيث يسكن الكواكبي أن وقع على ظهره حجر صدمه صدمة عنيفة تألم منها وأرسل الى الوالي تقريرا بذلك يطلب منه البحث عن الضارب واجراء العقوبة القانونية وفتحت هذه الحادثة للوالي بابا يلج منه الى الصفاق التهمة بالكواكبي لا سيما وقد كانت الحادثة بالقرب من مسكنه . ويمضي السيد كامل الغزي صديق الكواكبي ورفيقه يقص علينا خبر هذه الحادثة (٢) بالقول أن الوالي أوعز الى بعض شياطينه (يقصد جواسيسه وأعوانه) بأن يرفعوا اليه تقريرا ان الكواكبي منضم الى عصابة أرمينية وأنه أغرى بعض الناس فرشق على قنصل إيطاليا حجرة أصابت ظهره محاولا بذلك أحداث فتنة بين الأرمن والمسلمين في حلب وحالما قدمت هذه الاخبارية أمر الوالي رئيس الشرطة بالذهاب الى منزل السيد عبد الرحمن والدخول اليه قسرا وتفتيش مكتبه وخزانة أوراقه فتوجه رئيس الشرطة على الفور الى منزل الكواكبي وكان غائبا عنه فدخله قسرا ومعه طائفة من أتباعه وقصدوا خزانة مكتبه وألقوا فيها

(١) كامل الغزي : مجلة الحديث العدد السادس سنة ١٩٢٩ تاريخ ما عمله

التاريخ من سيرة الكواكبي .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٤ وما بعدها .

ورقة مزورة واستحضروها معهم وهي تركيبة العبارة مجرولة بحروف
أرمينية مضطربة التركيب يفهم منها ان أحد زعماء الارمن يعد السيد
عبد الرحمن بأنه عما قريب يقوم باحداث ثورة بين المسلمين وبين
الارمن في حلب . وقبض الشرطي على هذه الورقة وطار بها الى
الوالي فاستلمها منه وفي الحال أصدر أمره بالقضاء القبض على
الكواكبي والزج به في السجن .

وخرج الكواكبي من السجن ليحاكم أمام رئيس محكمة تم
الاتفاق بينه وبين الوالي على أن يصدر حكم الاعدام على الكواكبي
وتفد كل ذلك وصدر الحكم بالاعدام على أن يكون قابلاً للاستئناف
ثم التمييز . وتلقى الكواكبي الحكم برباطة جاش وثبات نفس
وشرع يطلب من المراجع العليا أن تكون محاكمته التمييزية في
عدلية بيروت لعداوة شخصية بينه وبين الوالي فأجيب إلى طلبه
ونقل مع أوراق الدعوة إلى محكمة بيروت واعتقل في سجنها .

يقول السيد كامل الغزي أنه في هذه الأثناء أرسل له
الكواكبي يطلب منه الاتصال بقنصل إيطاليا في حلب لكي يكتب
لقنصل دولة إيطاليا في بيروت بأن الكواكبي لا دخل له في حادث
الاعتداء عليه . وكتب قنصل إيطاليا في حلب بذلك فقد كان على
علاقة ودية مع الغزي وكان على يقين بأن الكواكبي لا دخل له في
الحادث وليست من صفاته اتيان مثل هذه الأفعال . وكان القنصل
قد تحرى في ذلك الحين عن الحادث وعلم ان الحجر الذي أصابه
كانت مقذوفة بمقلاع أحد الاولاد وانتهى الامر بأن يراة محكمة
بيروت الكواكبي وعاد الى حلب ليمضي في التشهير بعارف باشا
حتى عزل عن حلب في شهر جمادى الثانية سنة ١٣١٠ هـ (١)
ديسمبر ١٨٩٢ .

(١) كامل الغزي : مجلة الحديث ١٩٢٩، العدد السادس :

وبعد عزل عارف باشا من ولاية حلب عاد عثمان باشا
الأعرج إلى ولايتها فعهد للكواكبي برئاسة غرفة التجارة والمصرف
الزراعي في حلب .

لكن الكواكبي أثر الاستقالة من وظائفه وسافر إلى استانبول
(سنة ١٣١٢ هـ) ١٨٩٤ م بقصد السياحة فانزوى متنكرا في أحد
أماكنها لا يريد أن يعرفه أحد أو يتعرف عليه أحد وكأنه أراد أن
يلم بأحوال الأمور بها حتى يصور الاستبداد وأهله عن تجربة والملم
وبصيرة أو كما يقول الغزي كأنه لم يقصد من هذه السياحة إلا
أخذ الدروس في فن طبائع الاستبداد من مدرسته الكبرى قصر
البلاط السلطاني المعروف باسم (يلديز) فهو أعظم معهد تلقى
فيه دروس هذا الفن العظيم الذي جمع منه في كتابه طبائع
الاستبداد ما لم يجمعه أحد قبله ولا ينسج على منواله أحد بعده .

لكن الكواكبي ما كاد يصل إلى الاستانة حتى كانت
انجواسيس المنبثة في كل مكان منها قد نقلت للسلطان عبد الحميد
الثاني وحاشيته خبر وصوله إليها . ويبدو أن السلطان عهد إلى
أبي الهدي الصيادي باستضافة الكواكبي عنده . كان الصيادي
من حلب بلدة الكواكبي لكن ما أبعد الفرق بين الرجلين هذا متعلق
مناقق فقير في حسيبه ونسبه استطاع أن يتقرب إلى السلطان
عبد الحميد حتى أصبح مستشاره الخاص وكان رقيقا على كل صوت
حر وهو (الصيادي) الذي أوعز إلى عبد الحميد باستضافة
الإفغاني عنده حتى يراقبه كما ألف فيه عبد الله النديم كتابا سماه
المسامير نعتة بأخط الصفات (١) كذلك أنبرى الشيخ رشيد رضا
إلى نقده وما ادعاه الصيادي من تمجيد لحسيبه ونسبه بل فضيل
نفسه على الشيخ عبد انقادر الجيلاني والشيخ أحمد الرفاعي فآلف

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص ٢٤٤

رشيد رضا كتابا سماه « كتاب الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية » وبعدها أزمع رشيد رضا على ترك الشام الى مصر حتى لا يتعرض لأذى أبى إلهدى الصيادى المقرب من السلطان عبد الحميد الثانى .

كان لأبى الهدى الصيادى اذا نفوذ كبير فى الاستانة يتصدى للرجال الأحرار أى أنه كان أداة السلطان عبد الحميد فى هذه الناحية ولذلك وبرغم ان الصيادى كان يكره الكواكبي فقد كان بين أسرتيهما عداة شديدة فى حلب لتطاول آل الصيادى على ادعاء حقهم فى نقابة الأشراف فى حلب بدلا من آل الكواكبي ، برغم ذلك استضاف الصيادى الكواكبي عند وصوله للاستانة . ومن ثم لم تطل اقامة الكواكبي بها فغادرها عائدا الى حلب .

وعندما عاد الكواكبي الى حلب أخذ ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) التزام شركة للتبغ حيث فوضته الشركة فى كل ما يعمل . فأقبل الناس لثفتهم فيه على شراء تبغه لجودته ولأنه جعل ثمنه رخيصا . وكان الأمل أن يربح الكواكبي أرباحا طائلة من وراء ذلك . لكن السلطة القائمة فى حلب تصدت له فأوعزت الى بعض مثيرى الشغب باحداث فتنة نجم عنها مشاغبات ومذابح فكسدت بضاعة الدخان وخسر الكواكبي من هذا الالتزام . ثم كان أن عين الكواكبي فى سنة ١٨٩٤ م بناء على أمر من المشيخة الاسلامية الى قاضى حلب - فى وظيفة رئيس كتاب للمحكمة الشرعية فى حلب . فسرعان ما ظهرت وجوه الإصلاح فى هذه المحكمة فمنع اختلاط النساء بالرجال وجعل لكل مكانا ينتظر فيه دوره . ورتب الأوقات ونظم الدفاتر والسجلات وبقي فى هذه الوظيفة سنتين . لكن الحاقدين عليه وفى مقدمتهم والى حلب كانوا له بالمرصاد ، فاتفق الوالى مع القاضى على تنحيته وعين مكانه كامل الغزى صديق الكواكبي وصفيه برضا الكواكبي نفسه .

وعهد الى الكواكبي بعدها برئاسة لجنة بيع الاراضي الاميرية
ثم رئيسا لغرفة التجارة في حلب . وكان الكواكبي كشانه في كل
ما يسند اليه من أعمال نزيها مخلصا كفتا يحرص على خدمة
الناس أكثر مما يحرص على خدمة الرؤساء على حساب الشعب ،
معتدا برأيه معتزا بكرامته . فكان من الطبيعي أن يصطدم بأولئك
الذين كانوا ينظرون للوظيفة على أنها تكليف لا تشريف ليست
مجالا للرشوة والاستغلال وجلب المال .

ولكن نفس الكواكبي ضاقت بهذا الجو الكثيب وبهذه الحرية
وقد رآها تحتضر ورأى الفساد وقد استشرى فأثر أن يغادرها الى
مكان ينعم فيه بحريته ، لأن الانسان على حد قوله يتجرا أن يقول
في بلاد الحرية ما لا يتجرا عليه في بلاد الاستبداد . بل ان بلاد
الحرية تولد في الذهن من الافكار والآراء ما لا يتولد في غيرها .

لكن الكواكبي كتم خبر سفره حتى عن أقرب المقربين اليه
وعن أخلص أصدقائه فأعلن أنه يزعم التوجه الى عاصمة الدولة
العثمانية ليحاول أن يستبدل نيابة راشيا بغيرها وكان شيخ
الاسلام قد عرض عليه نيابة قضاء راشيا فاستقلها وبقي في حلب
مدة . لكن الحقيقة أنه كان يعد العدة لرحيل لا عودة فيه الى مكان
يستطيع أن يرفع قلمه وصوته بالاصلاح . أعد الكواكبي العدة
للسفر الى مصر في طي من الكتمان ولم يفض به الى أحد .

ويقول كامل الغزي انه ذهب لتوديعه زاعما له أنه مسافر الى
استانبول . وكنت عالما بكتابه جمعية أم القرى وقد شعرت منه
العزم على طبعه . فوقع في نفسي أنه سيعرج على مصر لطبعه ونشره
اذ لا يمكنه أن يطبعه في غيرها وحسذرت من ذلك وقلت له اياك
يا أخي والسفر الى مصر فانك متى دخلتها تعذر عليك الرجوع الى
وطنك لأنك تعد في الحال من الطائفة المعروفة باسم جون ترك (١)،

(١) أي الطائفة المتعانة مع الانجليز من الاتراك .

لا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة ، لما اشتهرت به وعرفت به
من شدة المعارضة وانتقاد الأحوال الحاضرة فقال (أي الكواكبي)
لم أعزم إلا على السفر الى استانبول للغرض الذي ذكرته لك . ثم
ودعني ومضى وأنا أسأل الله أن يرعاه بعين رعايته وأن يجعل
التوفيق رائده والنجاح مرشده وقائده . وكانت مبارحته حلب في
أوائل سنة ١٣١٦ هـ (١) (الموافق سنة ١٨٩٩ ميلادية)

(١) كامل القزى مجلة الحديث العدد السادس سنة ١٩٢٩

very few of the things that are other
than the things that are in the
world of the things that are in the world

برغم قصر المدة التي قضىها الكواكبي في مصر والتي لم تتجاوز الأربع السنوات فقد جاءها سنة ١٨٩٩ وتوفي بها سنة ١٩٠٢ ميلادية ، الا أننا رأينا أن نفرّد لها فصلا خاصا ذلك أنها على قصرها كانت أهم فترة في حياة الدارس لشخصية الكواكبي . ففيها رفع القلم مجاهرا بسقوط الاستبداد الذي فرضه السلطان عبد الحميد الثاني على البلاد وهاجم العثمانيين وسياستهم في الحكم وفيها نشر كتابه أم القرى الذي أحدث دويا هائلا ولعب دورا كبيرا في حركة اليقظة العربية على نحو ما سنذكره عند حديثنا عنه . كما جمع مقالاته المتفرقة التي كتبها عن الاستبداد في كتابه الذي سماه طبائع الاستبداد .

كانت مصر في الوقت الذي جاءها فيه الكواكبي ملتقى هاما لدعاة التحرر وزعماء الفكر الحر الذين ضاقت بهم بلادهم على عهد السلطان عبد الحميد الثاني . فلقد رأوا أن الاستبداد الذي فرضه هذا السلطان قد أفسد صفات النفوس وضيع أخلاقها فأصبح النفاق والتملق من سمات هذه النفوس . فلقد سد هذا السلطان على الناس أنفاس الحرية وخنق ارادتهم ليستعلي سلطانه وعظم بين هؤلاء الضعاف شأنه فزلت نفوسهم وركبها التزلف والتقرب ، وإذا وصلت النفوس الى هذا الدرك الأسفل انهضت قواعد الأخلاق واختلت الموازين فخاف البريء وأمن المسييء وتقدم الهازل وتأخر المجتهد وراجت الشعوذة . وصار المرء لا يأمن على عرضه وماله ودمه

لا يعرف كيف يهدر دمه ولا يدرى متى يسلب ماله ويهتك عرضه .
واذا خافت النفوس صغرت واذا صغرت أصبحت تمثل الدعة
والهدوء وتنفر من الطموح والسمو وفي كل ذلك معنى انهيار
الأمة .

من أجل هذا كانت باريس والقاهرة الملتقين الهامين للرجال
الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد والذين بدأوا العمل
خارج أرض الدولة العثمانية لاسقاط صرح الظلم والاستبداد الذي
فرضه هذا السلطان على دولته التي كانت البلاد العربية خاصة
في مشرقها تمثل أحد أجزائها الرئيسية .

ففي الوقت الذي تكونت فيه جمعية سرية ثورية في
القسطنطينية من طلبة المدرسة الطبية العسكرية سنة ١٨٨٩ م
والتي اتخذت لنفسها هدفا هو العمل على عزل السلطان
عبد الحميد والتي انتشرت من مدرسة الطب الى بقية المدارس
العسكرية الأخرى في عاصمة الدولة العثمانية ، كان نشاط
الأحرار في المهجر على أشده وخاصة في باريس حيث فر اليها عدد
من الأحرار العرب في مقدمتهم خليل غانم وهو مسيحي عربي من
بيروت كان نائبا في مجلس المبعوثين (النواب العثماني) سنة
١٨٧٨ م عن إحدى مناطق سورية ، فلما عطل السلطان عبد الحميد
البرلمان فر الى أوروبا وأقام في باريس حيث أسس جريدة تركيا
الفتاة *La jeune Turquie* بالاتفاق مع الأمير أمين أرسلان . ولم
يكتف خليل بذلك بل أخذ يكتب في مختلف الصحف الفرنسية
خاصة جريدة (الديبا) *Deba* كتب فيها مقالات يهاجم حكم
السلطان عبد الحميد واستبداده علاوة على توليه إدارة جريدة فرانس
انترناسيونال *France International* (١) ومن العرب الذين

(١) توفيق على برو : العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨-

لجأوا الى باريس كذلك أحمد رضا الذى وصل الى باريس ١٨٨٩
ويعتبر أحمد رضا من أكبر اعلام حركة المقاومة ضد السلطان
عبد الحميد تلقى تعليمه فى أوروبا وبعضه فى فرنسا وكان يجيد
الفرنسية اعادة تامة . وكان قد شغل بعض الوقت مديرا للتعليم
فى ولاية بروسية ثم غادرها الى أوروبا ليعمل مع زملائه الأحرار
حيث اشترك مع خليل غانم فى اصدار جريدة (مورث) . وقد
افزعت هذه الصحيفة السلطان عبد الحميد فأوعز الى سفارته فى
باريس سنة ١٨٩٧ م أن تقيم دعوى باسمه لدى محكمة السين على
أحمد رضا و خليل غانم وكانت هذه الصحيفة قد حملت فى اعدادها
من الصفات والنعوت هجاء لاذعا لهذا السلطان المستبد قوصفته
بأنه المخادع ، الجلاد ، السلطان الطاغية ، الدموى ، الظالم ،
المنحل ، بلية المسلمين ، الذئب الذى يتولى حراسة حظيرة الشياه
والسلطان الأخرم . وبرغم ذلك فان المحكمة لم تحكم على صاحب
الجريدة الا بغرامة ١٦ فرنكا وكانت غرامة مؤجلة التنفيذ ! وبرت
المحكمة حكمها بان مجازر السلطان عبد الحميد فى أرمينيا وخملات
الصحف الأوربية عليه كانت أحد الدوافع لحمل الصحفيين العرب
عليه ومن أجل هذا فان حكمها جاء حكما مخففا (١) .

وفى الوقت الذى كانت فيه باريس تمثل مركزا هاما من
مراكز تجمع الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد
كانت مصر ملتقى الأحرار العرب خاصة الأشقاء السوريين الذين
أبوا أن يستكينوا للضيم أو أن يهادنوا الظلم والاستبداد . وكانت
الحال بسورية ولبنان فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر على
شئىء من الهدوء والاستقرار ولكن على جانب كبير من الضنك
والضيق ، واذا عدنا القهقرى الى السنوات العشر التى سبقت

(٢) المصدر السابق ص ٥١

منتصف القرن التاسع عشر وإلى السنوات العشر التي تلتها وجدنا لبنان ساحة دموية للثورة الأهلية بين الدروز والنصارى خاصة فتنة سنة ١٨٦٠ التي امتد لهيبها إلى سوريا وأسفرت الفتنة عن نظام جديد بلبنان هو نظام المتصرفية فرضته الدول الغربية عليه، لكنه (لبنان) لم ينج من عنجهية المتصرفين الأتراك ولا من فساد بعض هؤلاء المتصرفين وجشعهم في جمع المال من أى سبيل واشتهر من هؤلاء المتصرفين واصف باشا الذي قال فيه أحد الشعراء حين توفى :

قالوا قضي واصفا وواراه الثرى
فأجبتهم وأنا الخير بلاته

رنوا الفلوس على بلاط ضريحه
وأنا الكفيل لكم برد حياته

وأمام ظلم وفساد الحكم العثماني بدأت هجرة السوريين واللبنانيين . وكان من الطبيعي أن تكون مصر هي المهجر القريب الذي تطلعت إليه قلوب الشاميين فالحوار واللغة ووحدة العادات أهابت بالأحرار أن يفروا من ربة الاستبداد العثماني إلى مكان آمن . ولم يكن هناك خير من في وادي النيل المكفولة فيه حرية القلم آنذاك (١) . ولقى النازحون من الشام إلى مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر أهلا بأهل وأخوانا بأخوان فشاركوا اخوانهم في مصر الحياة العامة وعاشوا أوفياء لمصر يحسون باحساسها وتخالج قلوبهم آمالها وأمالها ويعملون منها لاسقاط الحكم العثماني المستبد .

(١) عادل الغضبان : الشيخ نجيب الحداد ص ٨ سلسلة نوابع الفكر

العربي .

وكانت مصر في ذلك خاضعة للاحتلال البريطاني ، والاحتلال يشجع كل حركة مناوئة للدولة العثمانية وتلقى منه ترحيبا وحاكم مصر الشاب آنذاك الخديو عباس حلمي الثاني ليس على وفاق مع السلطان فهو بدوره يقرب اليه الفارين من وجه السلطان عبد الحميد . تولى الخديو عباس حلمي الثاني الحكم بعد وفاة والده الخديو توفيق في السابع من يناير سنة ١٨٩٢ وثارَت مشكلة بسبب تعيينه ذلك انه كان قد ولد سنة ١٨٧٤ ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ومعنى ذلك انه لا يحق له تولى منصب الخديوية ولكن حلت المشكلة بالحساب الهجري . وشهدت مصر في هذه الفترة صراعا بين الانجليز يريدون أن تزداد قبضتهم على مصر وبين السلطان عبد الحميد يريد أن يثبت سلطانه على مصر كولاية تابعة له . وآخر السلطان عبد الحميد صدور فرمان الخاص بتعيين عباس حلمي خديويا للبلاد فقد كان يريد تعديل حدود مصر من جهة سيناء فطالب بأن تتخلى مصر عن العقبة لتركيا على أساس أنها كانت تابعة من قبل لولاية الحجاز وأعارتها تركيا لمصر على عهد اسماعيل . وقبل عباس حلمي ما طلبته تركيا حتى يحل مشكلة اصدار فرمانه لكن انجلترا رفضت ذلك وأصرت على صدور فرمان تعيينه على أن يتضمن فرمان اسناد ادارة شبه جزيرة سيناء الى الخديو طبقا لحدود مصر في فرمانها الصادر لمحمد علي سنة ١٨٤٠ وقبلت تركيا أخيرا وحلت الأزمة (١) . وفي ذلك الحين فترت العلاقة بين الخديو الجديد و السلطان الدولة العثمانية ولقى الأحرار العرب الذين جاءوا الى مصر كل ترحيب منه وتأييد .

وراودت الخديو عباس أحلام وآمال عريضه كشباب يرتقى عرش مصر يحاول أن يؤكد سلطانه كخديو للبلاد فهو يريد أن

(١) عبد الرحمن الرافعي : مصطفى كامل ص ٢١٤

يؤكد انفصال مصر عن تركيا بل راودته فكرة أن تتول أمر خلافة المسلمين بدلا من السلطان العثماني . ومن أجل هذا أصبحت مصر مجالا لنشاط الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد .

جاء الى مصر ابراهيم اليازجي (بن ناصيف اليازجي) ، وكان ابراهيم هذا هو أول صوت انبعث بالدعوة الى القومية العربية في الشام فهو صاحب القصيدة التي وصفها البعض بأنها مارسيلية العرب (أشبه بنشيد الثورة الفرنسية)

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طهى الخطب حتى غاصت الركب
أقلاركم في عيون الترك نازلة
وحكم بين أيدي الترك مقتصب
صبرا هيا أمة الترك التي ظلمت
دهرا فعما قليل ترفع الحجب
لنظلم بعد السيف مأربنا
فلن يخيب لنا في جنبه أرب

ولم يكن منتظر أن تطيب الإقامة لابراهيم اليازجي في بلاد الشام بعد هذه الصيحة المدوية فبادر بالهجرة الى مصر حيث أسهم في ميدان الصحافة بنصيب وافر وتوفى على أرضها سنة ١٩٠٦ (١) واقتفى أثر ابراهيم اليازجي شخصية سورية أخرى هو رفيق العظم ، الذي أبى الاستكانة لظلم العثمانيين وفي وطنه الشام فانضم الى الجمعيات السرية المناوئة لهم . ثم ضاقت نفسه بالجواسيس يحيطون به من كل جانب فهاجر الى مصر سنة ١٨٩٤ . كذلك

(١) عيسى ميخائيل سايا : ابراهيم اليازجي سلسلة نوايح الفكر العربي ص ٤٩ وكذلك ارجع الى كتاب : العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ - ١٩١٤ مؤلفه توفيق علي برو ص ٢٧

سافر الى مصر شكيب ارسلان سنة ١٨٩٠ ليلحق باستاذ محمد عبده
فقد ذكر شكيب ارسلان في سنة ١٨٩٠ أول مقدمه الى مصر « كنت
بين العشرين والواحد والعشرين من العمر فمكثت سبعة أشهر في
الاسكندرية ثم جئت الى مصر ، وكان أكثر اجتماعنا في ذلك الوقت
باستاذنا الامام الشيخ محمد عبده وبرهطه المعدودين » . ثم ذكر
شكيب هذا الرهط وعدد أسماءهم فيهم سعد زغلول والشيخ
على يوسف صاحب المؤيد وكانت صحيفته مدرسة للحق والوطنية
والأدب ومنهم أحمد زكي باشا الذي أصبح شيخ العروبة في
تحقيقاته (١) .

وهكذا كانت مصر ملتقى للأحرار في ذلك الحين وتموج فيها
نهضة أدبية وثابة بفضل أعلام النهضة الأدبية في ذلك الحين وفي
مقدمتهم بطبيعة الحال الشيخ محمد عبده الذي عاد من منفاه في
بيروت سنة ١٨٨٨ وهو يحاول قدر استطاعته متابعة الإصلاح
قاصرا جهوده على الميدانين الاجتماعي والثقافي تاركا الميدان
السياسي . ومن المعروف أن الكواكبي اتصل بالاستاذ الامام
محمد عبده وكان يجله ويصفه - على حد قول رشيد رضا - بأنه
(محمد عبده أعلم من أسناذه الأفغاني . وكان رشيد رضا يخالف
الكواكبي في هذا الرأي . وقال الكواكبي حين سأله الخديو عباس
حلمي عن رأيه في الشيخ محمد عبده قال ان أفريقيه أخرجت كثيرا
من العلماء والفلاسفة . الحكماء ثم أخرجت أخيرا حكيمًا فاق جميع
الحكماء وهو الشيخ محمد عبده وقد روى ذلك السيد رشيد رضا
وهو يؤرخ لمحمد عبده .

كذلك ظهر في مصر طبقة من الصحفيين الممتازين في ذلك
الحين على رأسهم الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد التي

(٢) سامي الدمان : شكيب ارسلان ص ٦٩

أفسحت صفحاتها لمقالات الكواكبي . وحفل ميدان الأدب بطائفة من فحول الشعراء منهم سامى البارودى وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم فهؤلاء جميعا علا صوتهم بالقصائد العصماء التى خدمت شتى نواحي الإصلاح . كذلك كان هناك جيل صاعد من تلاميذ محمد عبده يشقون طريقهم فى ميادين الإصلاح ومنهم لطفى السيد والعقاد .

تلك كانت حالة مصر يوم وصل إليها عبد الرحمن الكواكبي فى منتصف نوفمبر سنة ١٨٨٩ لم يرافقه أحد من أسرته سوى ابنه الأكبر كاظم .

ولم تمض على مبارحة الكواكبي حلب بضعة عشر يوما الا وعرف الناس بوجوده فى مصر . وأخذت جريدة المؤيد تنشر له كتابه الذى أسماه طبائع الاستبداد فى مقالات متفرقة بعنوان الرحالة كاف . ويقول كامل الغزى فى ترجمته للكواكبي « وأخذت جريدة المؤيد تنشر له تفرقة كتاب طبائع الاستبداد الذى لم يطلعنا عليه مطلقا بخلاف كتاب جمعية أم القرى فقد أطلعنا عليه مرارا . ثم أنه طبع الكتابين المذكورين وقام لهما فى المابين السلطاني ضجة عظيمة وصدرت ارادة السلطان بمنع دخولهما الى الممالك العثمانية . بيد أنه رغما عن ذلك وصلا الى حلب على صورة خفية وقرأناها فى سمرنا المرة بعد المرة . وبلغنا أنه بعد دخوله الى مصر بأيام قليلة التف حوله جماعة من ادباء الأتراك يزعمون أنهم من طائفة جون ترك ، وما هم فى الحقيقة الا جواسيس يراقبون حركاته وسكناته ويكتبون بها الى المابين . »

لقى الكواكبي فى مصر اخوانه الأحرار السوريين الذين فروا من قبله الى القاهرة . لقي رشيد رضا الذى جاء من بلدته القلمون من أعمال طرابلس فرارا الى مصر فوصلها قبل الكواكبي بعام

(١٨٩٨م) ليلحق بإستاذه ورائسه محمد عبده فقد قال له رشيد رضا انى أعاهدكم أن أكون معكم كالمرید مع أستاذه . فوضع محمد عبده له منهاج جريدة واختار له اسمها (المنار) وحذره من الخوض فى السياسة ولم يلبث أن صدر عددها الأول فى الشهر التالى لوصوله الى مصر . كذلك التقى الكواكبي بالمرحوم عبد الحميد الزهراوى وهو الذى لعب دورا هاما وكبيرا فى الحركة العربية بعد توليه رئاسة المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس سنة ١٩١٣ والذى كان من مقرراته مطالبة جماعة الاتحاد والترقى الحاكمة باعطاء العرب حقوقهم واشراكهم فى الحكم والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية . واضطرت الحكومة الثمانية الى الاعتراف ببعض الاصلاحات حتى تهدأ هذه الحركة . ثم جاءت نهاية الزهراوى على يد جمال باشا السفاح التركى فى ٦ من مارس ١٩١٦ حين بعث الى كراسى المشنقة برعيل كبير من أحرار العرب .

وأتيحت الفرصة للكواكبي أن يلتقى كذلك بالمرحوم محمد كرد على وإبراهيم سليم النجار والشيخ طاهر الجزائري الذى لعب دورا هاما فى اليقظة العربية فى دمشق . فقد كان يشغل منصب مفتش المعارف فى دمشق فى الوقت الذى كان مدحت باشا حاكما لها وكان عونهُ الأكبر فى تأسيس جمعية المقاصد الخيرية ثم استبدلت جمعية المقاصد الخيرية بمجلس معارف سنة ١٨٨٢ كان رئيسه العالم محمود أفندى حمزة مفتى دمشق ونائبه الشيخ طاهر الجزائري . وكانت حلقة التدريس فى دمشق للشيخ طاهر الجزائري من أشهر حلقات التدريس كان يحضر له دروسه صفوة المتعلمين والنابهن والمفكرين العرب وأقنع طاهر الجزائري حكام دمشق أثناء ولاية مدحت باشا أن على الحكومة أن تنافس مدارس الارمناليات الأجنبية فى تعليم اللغة العربية وأنها اذا لم تقم بذلك تلقى النشء تعليمهم فى مدارس الارمناليات

هذه وتلقوا مع تعليمهم مذاهب سياسية معينة تحرص مدارس الارساليات على تلقينها للنشء (١) . لكن جهود الشيخ طاهر الجزائري الاصلاحية لم تحقق ثمرتها المرجوة بفضل موقف السلطان عبد الحميد من كل جهد اصلاحي فما لبث أن نقل مدحت باشا من دمشق ثم اتهمه بالتآمر على قتل السلطان عبد العزيز وحكم عليه بالاعدام ثم خفف الحكم الى النفي المؤبد حيث قضى بقية أيامه في الطائف (٢) . وغادر الشيخ طاهر الجزائري سوريا الى مصر .

أخذ الكواكبي يلتقى بكل هؤلاء الاخوة المناضلين رفقاؤه في الكفاح في مقهى سيلندبار بالقاهرة . كانوا يجتمعون كل مساء وبدأت معارف الكواكبي تزداد ودائرة صلاته تتوسع فاتصل بالمرحوم علي يوسف صاحب المؤيد عن طريق السيد رشيد رضا فتمكنت بينهما روابط الصداقة والود . وأخذت جريدتا المؤيد والمنار تقسح له صفحاتهما لنشر مقالاته .

واستقر الكواكبي في القاهرة واتخذ مسكنا له بشوارع الامام الحسين بالقرب من الأزهر وأخذ ينشر مقالات عن الاستبداد لا يوقعها باسمه وانما اتخذ لنفسه رمز الرحالة كاف . ولكن الأوساط الأدبية والثقافية عرفت أنه (الكواكبي) صاحب هذه المقالات فأقبلت عليه وعلى مقالاته .

ثم كان أن توثقت عرى الصداقة بين الكواكبي والخديو عباس حلمي الثاني . ويبدو أن الكواكبي تعرف بالخديو عن طريق رشيد رضا والشيخ علي يوسف فالمرحوم رشيد رضا في سرده لتاريخ حياته (٣) يقول : كان الخديو عباس يثق بي وكان يستوقفني

(١) مصطفى الشهاين : محاضرات عن القومية العربية ص ٤٩ - ٥٢

(٢) احمد امين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث .

(٣) رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عبده ص ٥٨٠ .

كثيرا مع الشيخ علي يوسف عند انصراف الناس من المقابلة ويتحدث معنا في بعض الشئون الحاضرة . وأصبحت مأذونا في مقابلة الخديو في أى وقت . ولما علم بأن الشيخ محمد إبا الهدى الصيادى يسعى لمنع مجلة المنار من دخول جميع البلاد العثمانية وأنه يكاتبنى ويحاول اقناعى بترك مصر والذهاب الى الأستانة ويعدنى بالرتب العلمية والوظائف الرسمية كانت هذه المسألة من أهم المهمات عند سموه . أما الشيخ علي يوسف فكان أخلص للخديو من مصطفى كامل وكان مواليا للشيخ محمد عبده في الوقت نفسه يخبرهم بجميع أسرار الخديو وما ينكره من أعماله .

والمعروف أن الخديو عباس حلمي الثاني كان يطمح في الخلافة الاسلامية يريد أن يتولاها بدلا من السلطان عبد الحميد وأنه في الفترة التي وصل الكواكبي فيها الى مصر كان على خلاف مع السلطان العثماني يقرب اليه الأحرار السوريين الذين ناصبوه (السلطان) العدا . نلمس هذا التقارب بين الخديو عباس الثاني والكواكبي ، ونجد ذلك فيما كتبه الكواكبي : من ذلك قوله في مقدمة كتابه طبائع الاستبداد « أننى في سنة ثمانى عشر وثلاثمائة وألف هجرية هجرت ديارى سرحا في الشرق فزرت مصر واتخذتها لى مركزا أرجع اليه مغتتما عهد الحرية فيها على عهد عزيزها حضرة سمي عم النبي (العباس الثاني) الناشر لواء الأمن على اكتاف ملكه .. »

ويتخذ المؤرخون من علاقة الكواكبي بالخديو عباس الثاني دليلا على أن الذى أوعز للكواكبي برحلته التي طاف فيها البلاد العربية هو الخديو نفسه ، وأن هذه الرحلة التي تمت بإيعاز الخديو كانت للدعاية له بشأن الخلافة الاسلامية . لكن هذا القول غير ثابت وتعوزه الأدلة المختلفة . ويستند الذين يقولون بأن الكواكبي قام برحلة لحساب الخديو عباس حلمي الثاني أن الصلة

بينهما كانت متينة قوية ، وان الكواكبي أثنى على الخديو ثناء
مستطابا . فبالإضافة الى ما ذكرناه للكواكبي فى كتابه طبائع
الاستبداد نجده فى كتابه أم القرى يقول :

ان جمعيتنا هذه اختارت أن تجعل مركزها المؤقت فى مصر ،
دار العلم والحرية فلها أمل قوى فى أن حضرة العزيز (عباس الثانى)
يكون عضدا للقائمين باعزاز الدين ، وخاليا فخريا للجمعية ،
ولا بدع فانه خير أمير شاب نشأ على الفيرة الدينية والحمية العربية
خصوصا جنابه السامى من آل بيت حازوا بين سائر ملوك الاسلام
وأمرائه قصب السبق فى الاطلاع على أحوال الدنيا ، فاجتهدوا فى
الترقيات السياسية والعمرانية والعلمية والتنظيمية والمدنية ، حتى
أن النهضة العثمانية بكل فروعها مسبوقة فى مصر ومقتبسة عنها ،
بل كما يعلم العارفون أنها تقدمت الدولة العلية العثمانية بعض
خطوات فى ميدان المدنية والعمران مدفوعة بأيدي المرحومين محمد على
وابراهيم وفاضل وكامل وغيرهم من الأمراء حتى والأميرات
المصريات ، فما كان رشيد وعالى وفؤاد وكمال ومدحت وعسوى
وبقية أحرار الأتراك الا وأكثرهم آلات أوجدوها ومدوها بالقوة هؤلاء
العظام ، ولا غرو فقد يحمل الابن أباه على الرشيد وان أباه .. »
بينما نجد الأستاذ عباس العقاد فى كتابه الرحالة كاف (عبد الرحمن
الكواكبي) ينفى فكرة أن يكون الكواكبي قد قام برحلته للبلاد
العربية لحساب الخديو عباس حلمى الثانى . ويقول انه عرف أحد
الشيوخ الذين عاشروا الكواكبي وتتبعوا أحوال الزعماء الدينيين فى
أيامه خاصة فيما يدور حول العلاقة بين القاهرة والقسطنطينية وبين
المهاجرين من بلاد الدولة العثمانية وبين حملة الأقاليم والأقطاب
المصريين ويقول العقاد ان هذا الشيخ قال له : « ان اناسا من
أصحاب الكواكبي كانوا اذا سمعوا عنه أنه يعمل لحساب الخديو
ويهيء الجو فى بلاد العرب لمبايعته بالخلافة تبسموا وقالو : والله

ما يعمل الرجل الا لحساب نفسه . ألا تزونه حريصا على الخلافة
العربية القرشية حريصا على النسبة الى قریش في بيت من بيوت
الامارة ؟ »

ويضيف العقاد قائلا ولم أعرف يومئذ موقع الصواب في هذه
المنطقة ، ولكنى قرأت كتب الكواكبي بعد ذلك عن الدعوة قرأيت
أن الرجل يدعو الى غاية طويلة الأمد يعلم أنها لا تتم في حياة فرد
واحد ، ويوطن العزائم على ذلك بين قرائه وصحبه ، وهو أخرى
أن يضمهم في سرعة الانجاز وسرعة الجزاء لو كان له مأرب يتعلق
به ويعلق به آمال العاملين معه غير مضطرين الى التصريح بمراذه . »

ان المسلم بأخلاق الكواكبي والدارس لشخصيته واخلاصه
للقضية التي أمر بها وعاش من أجلها - وهي حق العرب في الحياة
« الحرة الكريمة مستقلين أعزاء كراما على أنفسهم أقوياء مع الحق
حربا عوانا على الباطل ، حماة للدين الاسلامي الذي أنزله الله
سبحانه وتعالى بين ظهرائهم ومن أجل هذا فالخلافة الاسلامية من
حقهم دون سواهم - لا تجعلنا نوافق الرأي القائل بأن الكواكبي
كان يعمل لحساب أحد أو داعية بالخلافة لشخص مهما كان هذا
الشخص عزيزا له . فمن المعروف أن الكواكبي دعا الى حق العرب
وبالذات أهل الجزيرة العربية في الخلافة الاسلامية وأن يكون
الخليفة عربيا قرشيا وهي شروط لا تنطبق على الخديو عباس حلمي
الثاني بالطبع . »

كذلك يذكر الدارسون لحياة الكواكبي أنه ما ان عاد من
رحلته الى البلاد العربية حتى وجد نفسه بدون عمل يسند به
نفقته (١) ، ولو أنه كان يعمل لحساب الخديو عباس لما واجه نوعا

(١) سامي الدمان : الكواكبي سلسلة نوايخ الفكر العربي ص ٣٠

من الضيق في معيشتة ولأغدق عليه الكثير من الهبات والعطايا .
وحالت وفاة الكواكبي المفاجئة بعد رحلته الى البلاد العربية
دون تدوينه لأخبار هذه الرحلة لأن المنية عاجلته بعدها بثلاثة
أشهر . كذلك ينبغي أن نشير الى أن الكواكبي كانت رحلته الى
البلاد العربية والاسلامية على مرحلتين أو على فترتين زار في الرحلة
الأولى السودان ووصل الى سواحل أفريقيه الشرقية وزار زنجبار
والحبشة وعاد بعدها الى مصر ليستأنف رحلته الثانية . والكواكبي
ان لم يذكر تفاصيل رحلته ذكر أنه زار مصر ثلاث مرات (١) : المرة
الأولى كانت حين جاءها من الشام فارا من وجه السلطان عبد الحميد .
ونشر في جرائدها مقالاته السياسية تحت عنوان الاستبداد . أما
زيارته الثانية فكانت حين قطع جزءا من رحلته وعاد اليها ليستعد
لجولته الثانية والأخيرة من رحلته . ثم كانت الزيارة الثالثة حين
انتهت رحلته وعاد الى مصر ليتوفى فيها .

زار الكواكبي في رحلته الثانية الحجاز وصحراء الجزيرة
العربية واليمن ومنها سار الى الهند ووصل الى ميناء كراتشي حيث
عاد على ظهر سفينة حربية ايطالية بتوجيه من وكيل ايطاليا
السياسي في مسقط طافت به سواحل بلاد العرب وسواحل أفريقية
الشرقية . وعاد الكواكبي من هذه الرحلة بمعلومات وافرة عن حالة
البلاد الزراعية والمعدنية حتى انه استحضر نماذج المعادن من تلك
الأصقاع .

وكان الكواكبي يتمنى لو أتاحت له زيارة بلاد المغرب العربي
يتم بها اختباره للمسلمين ولكن المنية حالت دون ذلك .

كذلك قيل ان ايطاليا هي التي يسرت للكواكبي رحلته لأنها
كانت تطمع في نجاح المسعى بخلق الخلافة الاسلامية من تركيا وأنها

(١) الكواكبي : طبائع الاستبداد ص ١٠ طبعة حلب سنة ١٩٥٧ .

(ايطاليا) كانت تطمح في بسط نفوذها الاستعماري على شواطئ البحر الأحمر . ويستند أصحاب هذه الرواية على اجتماع الكواكبي أثناء رحلته بالقنصل الايطالي في الحديدة باليمن وبتنقله على ظهر سفينة حربية ايطالية كانت به سواحل الجزيرة العربية بتوصية من وكيل (معتمد) ايطاليا السياسي في مسقط .

لكن الملم بأخلاق الكواكبي ومبادئه التي عاش من أجلها ومات وهو يجاهد في سبيل تحقيقها لا يؤيد الرأي القائل بأن الكواكبي يقبل أن يكون عميلا لدولة أجنبية وأنه كان يصدر فيما يقول عن ايمان خالص بحق أمته العربية ومكانتها التي ينبغي أن تتبوأها .

ويواجه المؤرخ لحياة الكواكبي قلة المعلومات أو ندرتها عن رحلته الهامة التي طاف فيها البلاد العربية وعمن قابلهم فيها وعن انطباعاته وتواريخ زيارة كل قطر والمدة التي أقامها فيه الى آخره . لكن عذرنا في ذلك كما هو عذر كل المتصدين لحياة الكواكبي بالدراسة أنه كان يصدد كتابة وصف لرحلته والتي كان بنيتها أن يفرد لها كتاب بأكمله لولا أن المنية عاجلته فتوفى مساء الخميس الرابع عشر من يونيو ١٩٠٢ الموافق الخامس من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ .

وكان الكواكبي قد اعتاد كل مساء أن يجتمع باخوانه وأصدقائه في أحد المقاهي وفي اليوم الذي وافته المنية فيه جلس في مقهى يلدز قرب حديقة الأزيكية وكان معه يومها الأستاذ رشيد رضا ومحمد كرد علي وإبراهيم سليم النجار . وشرب الكواكبي القهوة كالعتاد وأحس بعدها بالم في أمعائه فقام ابنه كاظم بنقله الى منزله حيث أصابته نوبة قلبية توفى على أثرها وعمره آنذاك خمسون عاما .

وقال رشيد رضا وهو يؤرخ للسيد جمال الدين الأفغاني

أنه شاع أنه مات مسموما مثلما شاع ذلك في موت الأستاذ الامام السيد عبد الرحمن الكواكبي . وذهب البعض الى أن السلطان عبد الحميد هو الذي دبر ذلك له ، وان كان هذا القول تعوزه الأدلة الكثيرة .

وهناك رواية مختلفة بعض الشيء عن وفاته يرويها الأستاذ محمد كرد علي فيقول عن الكواكبي : جاء لي ذات ليلة يسمر معي في داري مع الحبيب رفيق بك العظم يستشيرني في أمر عظيم . قال : ان الخديو عباس عرض عليه أن يصحبه الى الاستانة ويستجلب رضاه عنه ، وبذلك تنحل هذه المشادة ويطمئن خليفة الترك اليه . فصعب علي وعلى رفيك بك ابداء رأي في موضوع جد خطير كهذا ، لأن ابن عثمان لا تأخذه هواة فيمن خرجوا على سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسيسة يذهب الرجل ضحيتها . ومما قال لنا أنه حائر في أمره بين القبول والرفض وأنه شعر بالأمس بوجع في ذراعه وما عرف له تعليلا . وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبي الى داره . فما هي الا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت ابنه السيد كاظم في الباب يبكي وينوح ويقول : قم يا كرد علي فان صديقك أبي قد مات . »

وسواء أصدقت الرواية الأولى أو الثانية فان الكل متفق على تاريخ وفاته وهو الرابع عشر من يونيو ١٩٠٢ وما ان علم الخديو عباس بوفاته (١) حتى أمر أن يدفن علي نفقته الخاصة ودفن في

(١) يقول الغزى في مجلة الحديث سنة ١٩٢٩ العدد ٦ أخبرني ابن خالتي الشيخ صالح عيسى وهو رجل موصوف بالصدق والامانة ان الخديو عباس حلمي الثاني دعا الكواكبي لزيارته بالاسكندرية فلبى الكواكبي الدعوة ثم عاد الى القاهرة ليسهر معنا في مقهى استانبول مع جماعة من أدباء مصر ولما انصرفنا جاء ابنه كاظم يقول ان أخاك والذي مات قد هشت من هذا الخبر المفاجيء وفحصه اطباء من قبل الخديو فوجدوا أنه فارق الروح وشيعت جنازته على نفقة الخديو .

باب الوزير • ثم نقلت مقبرته فى نهاية شارع العفيفى بمنطقة
باب الوزير وعليها بيتين لشاعر النيل حافظ إبراهيم :

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى
هنا خير مظلوم هنا خير كاتب

قفوا واقربوا أم الكتاب وسلموا
عليه فهذا القبر قبر الكواكبى

ونعاه كل مخلص من أبناء هذه الأمة العربية وصدرت
الأهرام والمؤيد والنواء تبكى الحسارة الكبرى التى ألمت بالأمة
العربية لوفاته وأشاد الجميع بفضله ودوره وسيظل التاريخ يذكر
اسمه كعلم من أعلام هذه الأمة العربية الخالدة أدى دوره كأحسن
ما يكون الأداء وذهب للقاء ربه راضيا عنه سعيدا به لأنه كان رجلا
بارا بدينه وفيما لقومه وأمته مخلصا لمبادئه نزيها أبى النفس •
ولا يستطيع باحث فى اليقظة العربية الحديثة أن يتجاهل دوره أو
يغضه حقه لأن دوره وحقه أعظم من أن ينكروا أو يهملوا شأنهما •

الفصل الرابع

دور الكواكب في البقعة العربية

من المعروف أن حركة النهضة العربية في العصر الحديث بدأت في أول أمرها في صورة بعث للأدب العربي • ولقد شهدت بلاد الشام منذ منتصف القرن التاسع عشر حركة احياء اللغة العربية وآدابها وهي الحركة التي بدأت على يد المسيحيين العرب في هذه البلاد • ذلك ان بلاد الشام كانت مركزا للارساليات التبشيرية المسيحية التي قام بها المستشرقون الأوروبيون • ومن المعروف أن فرنسا كانت أسبق الدول في هذا المجال وأنها بدأت نشاطها في بلاد الشام قبل الحكم المصري لهذه البلاد بفترة طويلة من الزمان • فكانت سوريا ولبنان موضع اهتمام البعثات الدينية الفرنسية • وأنشأ اليسوعيون الفرنسيون في لبنان أول مركز للثقافة الفرنسية وهي المدرسة التي أنشئوها في عينطورة (١) سنة ١٧٣٤ ميلادية كما أنشأوا مدرسة في زغرتا وقد تعلم فيها أجيال من شباب الموارنة ومنهم من أتم دراسته في الكلية الشرقية بروما وبمدارس فرنسا • ومن ثم كانت الموارنة أكثر الطوائف اتصالا بالحضارة الغربية وكان لهم فضل تعريف مواطنيهم بنماذج من الثقافة الغربية التي كانت سائدة في ذلك الوقت • (٢)

(١) د • مصطفى الخالدي وعمر فروخ - التبشير والاستعمار ص ١١

(٢) من أراد التفصيل عليه الرجوع الى تاريخ سوريا ليوستف الدبس ص

٦٠٠ الجزء الرابع من المجلد الثامن •

ومما ساعد في حركة النهضة العربية نقل الطباعة التي بدأت في أوروبا وفي إيطاليا إلى بلاد الشرق . وكانت مطبعة الاستانة العبرية أول مطبعة أنشئت بالشرق . وبدأت أول مطبعة تنشأ بالشام تطبع الكتب العبرية وهي مطبعة دير فرحيا جنوب طرابلس في أوائل القرن السابع عشر طبع فيها كتاب المزامير باللغتين السريانية والعبرية . ثم أنشئت أول مطبعة عربية بحلب في أوائل القرن الثامن عشر أنشأها بطريرك أنطاكية وكانت أول مطبوعاتها كتاب في الطقوس الدينية (١) .

كذلك بذل المبشرون الأمريكيون وهم البروتستانت دورهم في حركة الاهتمام بالتعليم والاهتمام بالتراث العربي كسبيل إلى تدعيم نفوذهم ومناقسة المبشرين الفرنسيين وغيرهم من الجزويت والكاثوليك . وفتح المبشرون الأمريكيون مدارس مختلفة في بلاد الشام . فسواء صح ما نقل عن الدكتور كورنيليوس فان ديك المبشر الأمريكي المشهور من أنه ركب يوما حماره متوجها إلى إحدى القرى ليفتح مدرستين ، فاستغرب القروي وقال هل قريتنا الصغيرة بحاجة إلى مدرستين . فأجابه الدكتور قائلا : حيث يذهب الدكتور فان ديك يتبعه الجزويت . سواء صحت هذه الرواية أم لم تصح ، فإنها تصور واقع الحال في شدة التنافس بحيث يفتح المرسلون الأمريكيون مدرسة يتبعهم المرسلون اليسوعيون بفتح مدرسة أخرى في نفس المكان . ومن أهم ما فتحه في بلاد الشام الكلية السورية البروتستانتية التي كانت نواة الجامعة الأمريكية في بيروت إلى جانب ما أنشأوه من مدارس في زحلة ودمشق وحلب وغيرها . لكن أهم من فتح المدارس كان التأثير الذي تركه الغرب على مجتمع هذه

(١) ارجع إلى تاريخ الصحافة العربية للميكونت فيليب دي طرازي وتاريخ الطباعة في الشرق العربي لخليل صابات .

الطوائف المسيحية . لقد وجدت لديهم رغبة قوية في أن يقتبسوا أسلوب الغرب وتنظمه وتقاليده وبدأ ذلك بشكل واضح لدى المسيحيين في لبنان الذين بدأ أكثرهم في الهجرة الى أمريكا . ثم كان أن أدى ازدياد التجارة من الشرق وأوروبا وأمريكا الى خلق طبقة جديدة بين أفراد هذه الأقليات طبقة برجوازية في المدن الكبرى من المسيحيين السوريين . الأرمن ، اليهود وهي طبقة تختلف عقلياتها وتفكيرها عن مسيحي الشرق المقيمين في القسرى . والذين كانوا مجتمعات مغلقة على نفسها . بدأ هؤلاء البرجوازيون يقتبسون أساليب الحياة الأوروبية ولم يكن لهؤلاء المسيحيين ولاء بالطبع للدولة العثمانية ولا لمجتمعاتهم التي نشأوا فيها بقدر ما اتجه ولاؤهم لأوروبا يقلدون أسلوب الحياة الأوروبية ويتحمسون في اخلاص لهذه الحكومات الأجنبية الذين ارتبطوا بها ارتباط حب ومنفعة .

وبدأت الثقافة الأوروبية تترك بصماتها في الشرق العربي عن طريق الرحلات والهجرة والمدارس والتجارة . وكان من شأن ذلك أن تزداد الهوة بين المسلمين وبعض المسيحيين واليهود المتعصبين للثقافة الغربية من جانب آخر . وكان اقتباس هؤلاء المسيحيين واليهود للغات الغربية ولأسلوب تفكير وتقاليده وعادات الغرب ذات أهمية كبيرة بالنسبة للحكومات الغربية والشركات التجارية التابعة لها التي كانت بحاجة ماسة الى استخدام أفراد هذه الأقليات في الوظائف الصغرى لديها وكان ذلك مدعاة أيضا لحقد وتشكك بعض زملائهم من المسلمين . (١)

واذا كانت الفتنة الكبرى التي شهدتها لبنان وسوريا سنة ١٨٦٠ بين النصارى والدروز والتي لا يمكن انكار وجود عوامل

(١) Hourani : Minorities in the Arab World, p. 26.

كذلك ينبغي الرجوع الى كتاب الاستاذ ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ١٨٤ وما بعدها .

خارجية في اشغالها قد جاءت نتيجة لتعصب ممقوت من جانب البعض ، فان انظار المستنيرين من المسيحيين من أبناء الشعب العربي قد وجهت اهتمامها للقضاء على هذا التعصب ومحو آثاره . وهنا يبرز دور كل من تصنيف اليازجي وبطرس البستاني . أخذ تصنيف اليازجي يدعو الى بعث الأدب العربي القديم وكان يعتقد أن ذلك ينبغي أن تكون مهمة المثقفين العرب الأولى . ومما يستدعي الانتباه في هذه الدعوة أنها كانت موجهة الى جميع العرب النصاري منهم والمسلمين وأنها كانت تناشد جميعاً ان يذكروا ويهتموا بإحياء تراثهم المشترك .

كذلك برز البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣) كأحد الشخصيات العربية التي لعبت دوراً مهماً في ذلك الحين . كان بطرس هو الآخر عربياً مسيحياً من لبنان تلقى حظاً من التعليم أكثر مما تلقاه نصيف اليازجي وأقام في بيروت حيث ترجم الكتاب المقدس الى اللغة العربية . وساعده اتصاله بالمبشرين الأمريكيين والعمل معهم الى اتقان اللغة الانجليزية وعمل بالتعليم في مدارسهم ومما يذكر له بالفضل عملان عظيمان هما اصداره معجم اللغة العربية نشره سنة ١٨٧٠ بعنوان محيط المحيط ثم أعد موجزاً له أسماه قطراً المحيط . أما عمله الثاني فهو اصداره دائرة معارف عربية للمعارف أكمل منها ستة أجزاء وقام أبناءؤه وأحفاده وبعض أبناء أسرته بإتمامها بعد وفاته فكان مجموع ما صدر أحد عشر جزءاً . كذلك حارب البستاني التعصب الديني وانشأ هو ونصيف جريدة أسبوعية أسماها نقيسنوريه سنة ١٨٦٠ كان هدفها الدعوة الى الوفاق بين سكان البلاد من مختلف الطوائف على أثر وقوع مذابح سنة ١٨٦٠ . كان البستاني يؤمن ان المعرفة تؤدي الى ازالة الذهن والتغور يقضي على التعصب . وبعد مرور ثلاث سنوات انشأ مدرسة أطلق عليها اسم المدرسة الوطنية قايتها تحقيق الهدف ذاته عن

طريق تربية الطلاب من مختلف الطوائف على أساس التسامح والمثل العليا الوطنية . وبعد أن نشر معجمه في اللغة العربية انشأ سنة ١٨٧٠ مجلة سياسية وإدارية اسمها (الجنان) تصدر مرة كل أسبوعين وتسعى إلى تحقيق الهدف ذاته عن طريق مكافحة التعصب واتخذ لمجلته شعار حب الوطن من الإيمان .

ويمكن أن نصنف اتجاه المسلمين العرب على هذا النحو : كان هناك بعض المسلمين المتعصبين الذين يكرهون الحضارة الغربية لأنها مسيحية ولأنها تهدد بالقضاء على عالمهم القديم . وكان هناك من يعترف بقيمة هذه الحضارة الغربية وتقاليدها وضرورة الاقتباس منها لكنهم يرغبون في الاحتفاظ بحضارة الإسلام وتقاليده الرائعة فالمشكلة بالنسبة لهؤلاء كانت مشكلة إدخال روح المدنية الحديثة وإيقاظ المسلمين من سباتهم العميق ليحققوا بركب الحضارة الذي سبقتهم فيه الأمم الأخرى والذي كان ينبغي أن يكونوا (المسلمون) هم روادها وقادتها كشأنهم في سالف الأزمان .

وهنا يبرز دور ثلاثة من رواد الفكر الإسلامي الأفغاني ، محمد عبده ، الكواكبي . فمما لا شك فيه أن وصول السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر مارس ١٨٧١ وأقامته فيها حوالي ثمان سنوات (أغسطس ١٨٧٩) كانت من خير السنين بركة على مصر والعالم الإسلامي . يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه زعماء الإصلاح في العصر الحديث : ثمانى سنين كانت من خير السنين بركة على مصر والعالم الشرقي لا بما أفاد جمال مظهرها وحسن رونقها وسعادة أهلها ولكن لأنه كان يدفن في الأرض بذورا تنهيا في الخفاء للنماء ، وتستعد للظهور ثم الازدهار فما أتى بعدها من عشق للحرية وجهاد في سبيلها فهذا أصلها وإن وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت في نموها . وخشى الحنديو توفيق مما يدعو له السيد الأفغاني فصدر قراره بتركه لمصر . فلما

كانت الثورة العراقية قتلته حكومة الهند من حيدر آباد الى كلكتا
والزمته الإقامة فيها مخفورا مراقبا حتى انتهت الثورة بالاحتلال
الانجليزى لمصر . وغادر الأفغانى الهند الى لندن سنة ١٨٨٣ لكنه
لم يطل الإقامة فيها فسافر منها الى باريس وكتب الى تلميذه
وصديقه الشيخ محمد عبده ليوافيه بها من منفاه فى بيروت حيث
أصدرا جريدة العروة الوثقى ببغيان نشرها فى العالم الاسلامى
لتفهم أبناءه حقوقهم وواجباتهم . لكنهما يخشيان أن يفهما من
مخاطبتهما المسلمين انهما يدعوان الى اثاره الشقاق بينهم وبين
أبناء الأديان الأخرى فى الأقطار الاسلامية فهما يقولان : لا يظن
أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا
ومدافعتها عن حقوقهم تقصر الشقاق بينهم وبين من يجاوزهم فى
أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من
أجيال طويلة ، فليس هذا من شأننا ولا بما ندعو اليه ولا مما يبيحه
ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا . ثم صدر العدد الأول من هذه
الجريدة فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ (١٣ مارس ١٨٨٤م)
وقد تضمن منهاج الأفغانى ومحمد عبده فى الإصلاح . بلغ الاحجاف
بالشركيين غايته ووصل العدوان فيه نهايته ، وأدرك التغلب منهم
بكايته خصوصا فى المسلمين منهم ، منهم ملوك انزلوا عن عروشهم
جورا وذوو حقوق حرموا حقوقهم ظلما وأعزاء باتوا أذلاء وأجلاء
أصبحوا حقراء وأغنياء امسوا فقراء ، وأصحاء أضحوا سقاما ،
وأسود تحولوا أنعاما ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقد مسها الضر
من اثرات الطامعين فى أطماعهم خصوصا من جراء هذه الحوادث التى
بذرت بذورها فى الأراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى
ذوى المطامع فيها . . . أن الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار
المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموما ، أن مصر
تعتبر عندهم من الأراضى المقدسة ولها فى قلوبهم منزلة لا يجلبها

سواها قطر نظرا لموقعها من الممالك الاسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين . . ان الخطر الذي ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين وتكنمت به قلوبهم ولن تزال آلامه تستنفرهم ما دام الجروج نفارا . (١)

ثم يمضى العدد الأول من هذه الجريدة يوضح أهداف جمعية العروة الوثقى السرية السياسية التي ضمت الى عضويتها (عقلاء الأمة وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التي أدت بهم الى ما هم فيه . . . وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين وفيها موسم الحجيج في كل عام يجتمع اليه الشرقي والعربي ويتآخى في مواقعها الطاهرة الجليل والحقير والغنى والفقر ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات .

ومن الواضح أن الأفغانى يتشابه في هذه الناحية مع الكواكبي في جمعيته التي تخيل عقدها في مكة أم القرى لتقضى مظاهر الضعف عند المسلمين ووصف الدواء بعد تشخيص الداء .

كذلك نجد الأفغانى يضع بعض المبادئ التي يراها لازمة لاصلاح احوال المسلمين شبيهة بما نادى به الكواكبي فجريدة العروة الوثقى تلخص أهم أغراضها في نفس عددها الأول فيما يأتي :

١ - بيان الواجبات على الشرقيين التي كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات .

(١) روضة رضا : تاريخ الامام محمد عبده ج ١ ص ٢٩٥

٢ - اشرب النفوس عقيدة الأمل في النجاح وإزالة ما حل بها من اليأس .

٣ - دعوتهم إلى التمسك بالأصول التي كان عليها أبائهم وأسلافهم وهي ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب .

٤ - اندفاع عما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا ينعقدون في المدنية ماداموا متمسكين بأصول دينهم .

٥ - أخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .

٦ - تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية وتمكين الألفة بين أفرادها وتأمين المنافع المشتركة بينها ومناصرة السياسة الخارجية التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

أراد الأفغانى أن يدعو إلى إصلاح المسلمين دينياً واجتماعياً وسياسياً إذ كان المثل الأعلى له حالة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين من حيث العقيدة والصفات الخلقية والنظام السياسى فيرى أنهم كانوا موحدين حقاً معتزين بدينهم ، لا تفرقهم المذاهب والنحل مترابطين برباط الأخوة فيهم خلق الآباء والشيوخ ، يبذلون أعز شئى في سبيل عقيدتهم وعزتهم ينشرون بينهم العلم ما استطاعوا ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وتلك كانت نفس ما تمناه الكواكبي ورغب في تحقيقه كما يتضح ذلك من كتابه جمعية أم القرى على نحو ما سنوضحه .

ثم يحمل الكواكبي على عقيدة الجبر والخطأ بنفس العنف الذى حمل به الأفغانى على الجبرية في جريدة العروة الوثقى . فالأفغانى يرى أن الفساد دخل على توالى الزمن من خمسة أبواب من عقيدة

الجبر والخطأ في فهم القضاء والقدر حتى صرفت النفوس عن الجذ
في الأعمال ومما أدخله الزنادقة على تعاليم الأسلام في القرنين
الثالث والرابع الهجريين فجعلوا المسلمين شيعة وأحزابا وأضعفوا
قوة الدين بما أدخلوه من تعاليم فاسدة ومما أحدثه السوفسطائيون
من أفكار ، وعدمهم الحقائق خيالات تبدو للنظر ومما عمله كذبة
المحدثين من وضع أحاديث ينسبونها إلى رسول الله وفيها السم القاتل
لروح العمل والآباء وفيها ما يستوجب ضعفا في الهمم وفتورا في
العزائم .

فإذا نظرنا إلى كتاب أم القرى نجد الكواكبي يحمل على عقيدة
الجبر والقدرية هو الآخر . فالكواكبي يصدر عقيدة الجبر وتأثيرها
على أفكار الأمة في الأسباب الدينية التي أضعفت المسلمين
ويخصص بحثها في أول اجتماع تعقده جمعيته في مكة بعد اجتماعها
الأول التمهيدى . فيقول على لسان العضو الشامي (انى أرى منشأ
هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والأخلاقية مثل العقيدة
الجبرية التى من بعد كل تعديل فيها جعلت الأمة جبرية باطنا قدرية
ظاهرا) (١) .

كذلك نجد تشابها بين الأفغانى والكواكبي في تأكيد كل
منهم على أهمية اللغة العربية والمحافظة على اللسان العربى .
فالأفغانى يقول ان عقلاء الأمة لبحث أحوال المسلمين اختاروا ان
يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان
العربى ويؤيد فى مجالسه بيان الخطر مما تسعى إليه الأمم الأجنبية
فى الشرق من اضعاف اللغة القومية وقتل التعليم القومى والتغيير
من آداب الأمم الشرقية لتحل محلها لغتها وآدابها « مع أنه لا جامعة
لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ولا عز لقوم

(١) الكواكبي : أم القرى ص ٢٣ طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٣١م

لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لهم اذا لم يقيم منهم من يحيى آثار رجال
تاريخهم فيعمل عملهم وينسج على منوالهم . »

وينفى الأستاذ رشيد رضا عن الأفغانى كونه يريد جامعة
اسلامية يكون المسلمون كلهم دولة واحدة ويروى عن الأفغانى
ما كتبه فى مقاله بعنوان (الوحدة الاسلامية) التى نشرت فى
العدد التاسع من العروة الوثقى « لا أتمس بقولى هذا أن يكون
ملك الأمر فى الجميع شخصا واحدا فان هذا ربما كان عسيرا
ولكنى أرجو أن يكون سلطانهم جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم
الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهد لحفظ الأمر ما استطاع
فان حياته بخياته وبقائه ببقائه . . . » ويخلص الأستاذ رشيد رضا
من ذلك الى القول أنه (الأفغانى) كان يكتفى بالوحدة الدينية
وعقد المحالفات بين الدول الاسلامية (كالترك والفرس والأفغان)
ثم الاعتراف لأقواهن برياسة الحلف (١) .

ومن هنا يختلف الكواكبي عن الأفغانى ، فالكواكبي كان
داعية للقومية العربية يرى أن تكون قيادة الأمة الاسلامية للعرب
مثلا كان لهم هذا الأمر فى سالف الزمان بل هو يحصر الخلافة
الاسلامية فى عرب الجزيرة بالذات على نحو ما جاء فى كتابه أم
القرى . فالكواكبي يرى ان الدور الذى لعبه العرب فى العالم
الاسلامى بلغتهم وانتسابهم الى صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم
ووجود الحرمين الشريفين فاذا كان على العالم الاسلامى أن يقف
فى جبهة واحدة فلا بد ان تكون القيادة عربية وان يكون مركزها
أم القرى لا اسطنبول .

ونحن لانتفق مع رأى القائل بأن الكواكبي اختلطت عنده

(١) رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عليه السلام ج ١ ص ٢٢٥ وما بعدها .

الفكرة الاسلامية بالفكرة العربية القومية (١) فالكواكبي يميز في وضوح بين الشعوب العربية والشعوب الاسلامية غير العربية يرى للأولى الزعامة على الثانية . وهو يرى ان أحد أسباب فشل الاتراك العثمانيين أنهم لم يستعربوا وليس هناك من سبب لذلك سوى كرههم للعرب واطلاقهم اسماء ونعوت تحمل الحقد والكراهية مثل (يس عربى) أى عربى قذر و (ويلنجى عرب) أى عرب شحاذين . والعرب لا يقابلونهم فى كل ذلك سوى بكلمتين الأولى هى قول العرب فيهم : ثلاث خلقن للجور والفساد القمل والترك والجراد ، والكلمة الثانية تسميتهم بالأروام كناية عن الريبة فى اسلامهم .

وأهمية دعوة الكواكبي أنه لم يتفق مع القائلين بتقوية الرابطة مع الدولة العثمانية على أساس أنها دولة الخلافة الاسلامية فأوضح الكواكبي أن احترام الشعائر الدينية فى أكثر ملوك آل عثمان هى ظواهر محضة وليس من غرضهم ولا من شأنهم ان يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك ، وان الدين الاسلامى قد أصبح فى حاجة ماسة الى من يرعى شئونه بتعيين خليفة آخر غير الخليفة العثمانى وينبغى ان يكون هذا الخليفة عربيا قرشيا كما كان فى صدر الاسلام . ولا يريد أن ينفرد هو بهذا الرأى فإراه يصدره عن جمعية تمثل المسلمين فى كل قطر ذلك هى جمعيته التى اسمها جمعية أم القرى .

ففى الوقت الذى كان الأفغانى يرى اصلاح أحوال المسلمين على يد الدولة العثمانية كان الكواكبي يحمل حملة شعواء على الاتراك فهم لم يحترموا شعائر الدين وليس من غرضهم بل ولا من شأنهم ان يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك . ثم نجده يسرد كثيرا من أعمالهم السيئة تجاه المسلمين ، فأقول هذا السلطان

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٦٩

محمد الفاتح وهو أفضل آل عثمان قد قدم الملك على الدين فاتفق
سرا مع فرديناند ملك (الاراغون) الاسبانيولى ثم مع زوجته
ايزابيلا على تمكينهما من ازالة ملك بنى الأحمر آخر الدول العربية
فى الاندلس ورضى بالقتل العام والاكرام على التنصر . وهذا
السلطان سليم غدر بآل العباسى واستقصاهم حتى انه قتل
الأمهات لأجل الأجنة وبينما كان يقتل العرب فى الشرق كان
الاسبانيون يحرقون بقيتهم فى الاندلس وهذا السلطان سليمان
ضايق ايران حتى الجأهم الى اعلان الرفض المكفر . . . وقد سعوا فى
انقراض خمس عشرة دولة وحكومة اسلامية منها أنهم أغروا
وأعانوا الروس التتار المسلمين وهولانده على الجاوة والهنديين
وتعاقبوا على تدويخ اليمن فأهلكوا الى الآن عشرات الملايين من
المسلمين يقتلون بعضهم بعضا لايحترمون فيما بينهم ديناً ولا أخوة
ولا مروءة ولا انسانية حتى ان العسكر العثماني باغت المسلمين مرة
فى صنعاء وهم فى صلاة العيد . . . (١)

ونجد الأفغانى يندد بالسياسة الأوربية تجاه المسلمين
ويصب عليها جام غضبه حتى ان حملته على السياسة الانجليزية
استغرقت أكبر قسم فى العروة الوثقى فهو يرى ان حركة الاستعمار
الأوربي حركة دينية نصرانية موجهة ضد الاسلام وقد قدم مؤلف
كتاب حاضر العالم الاسلامي للعلامة الأمريكى لوثرروب ستوردارد
والذى ترجمه الى العربية الأستاذ عجاج نويهض وعلق عليه وكتب
مقدمته الأستاذ شكيب أرسلان - ملخصاً لدعوة الأفغانى وفكره على
النحو التالى : العالم النصراني على اختلاف أممه وشعوبه عرقاً
وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على
الخصوص - فجميع الدول النصرانية متحدة معا على ذلك الممالك
الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلاً . الروح الصليبية لم تبرح

(١) الكواكبي : لم القرى طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٢١ ص ٢٠٤

كامنة في صدور انصارى كمن النار في الرماد روح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم . . . جميع هذا يوضح ان العالم الاسلامي يجب عليه ان يتحد اتحادا دفاعيا عاما مستمسك الأطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الذود عن كيانه ووقاية نفسه من القضاء المقبل . وللوصول الى هذه الغاية الكبيرة انما يجب عليه اكتفاء تقم الغرب والوقوف على تقدمه وقدرته . (١)

واذا كانت تلك دعوة الأفغاني وذلك هو مذهبه فان الكواكبي يركز على السياسة العثمانية التي اکتوى بها والتي رآها سببا في هضم حقوق العرب في المناصب والارتزاق من بيت المال هضما لا نسبة فيه حال كونهم ثلثي رعية الدولة العثمانية . كما حمل الكواكبي على الدولة العثمانية تمسكها بأصول الادارة المركزية مع بعد الأطراف عن العاصمة وعلم وقوف رؤساء الادارة العثمانية على أحوال تلك الأطراف ثم هو ينكر على سلاطين بنى عثمان تلقيهم بالقب الخلافة الاسلامية ثم يضع في ختام جمعياته التي تخيل عقدها في مكة شروطا من أربعة عشر بندا لاختيار الخليفة الجديد للمسلمين بدلا من السلطان العثماني ويضع في أول هذه الشروط ان يكون الخليفة عربيا قرشيا .

ومن هذه الناحية يبرز دور الكواكبي في اليقظة العربية الحديثة فهو أول كاتب مسلم دعا العرب الى قطع علاقتهم بالعثمانيين واستنهض هم قومه وبلغ تحمسه ان بلغ أسلوبه في بعض الأحيان منتهى الشدة والتفريع كقوله :

يا قوم ينازعني والله شعور هل موقفي هذا في جمع حي
أحييه بالسلام أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة . يا قوم
لستم بأحياء عاملين ولا أموات مستريحين بل أنتم بين بين .

(١) حاضر العالم الاسلامي تأليف لوثرروب ستوردارد - مترجم .

يا قوم هللكم الله من المهتدين كان أجدادكم لا ينحنون الا ركوعا لله وأنتم تسجدون لتقيل أرجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الاخوان . وأجدادكم يتامون الآن في قبورهم مستوين أعزاء وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء .

يا قوم الهلكم الله الرشدة متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الأرض الى السماء أنظاركم وتميل الى تعالى نفوسكم فيستقل كل انسان منكم بذاته ويملك ارادته (١) .

ويخطيء من يصف الكواكبي أنه كان كاتباً اسلامياً متعصباً لدينه فهو يخاطب قومه من غير المسلمين بقوله :

يا قوم واعنى بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين ، أدعوكم الى تناسي الاساءات والأحقاد وما جناه الآباء والأجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين ، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون فهذه أمم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة **للالحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي ، والارتباط السياسي دون الإداري .** فما بالناس نحن لا نفكر في ان نتبع احدي تلك الطرائق أو شبهها . فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحنة من الاعجام والأجانب: دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأنا ، نتفاهم بالفصحاء ونتراحم بالأخاء ، ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط . دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي : **فلتحيا الأمة فليحيا الوطن فلنحيا طلقاء أعزاء .** »

وواضح مما أوردناه من كلام الكواكبي أنه يدعو لوحدة قومية

(٢) الكواكبي : طبائع الاستبداد من ١٣٩ وما بعدها .

عربية لا يكون فيها الدين مجالا لتنازع أو تحاسد أو تباغض
فالدين عنده الله والوطن للجميع . ثم هو يدعو قومه للتبصر فيما
بيته الغرب من عوامل التفريق بين أبناء الأمة العربية باسم الدين
فيقول علينا أن نقول لهؤلاء المصطادين في الماء العكر من الأجانب
ان العرب قوم يعرفون مصالحتهم وأنهم أخوة في السراء والضراء
مجتمعون على محبة أمتهم ووطنهم .

أحب الكواكبي قومه وأمته العربية التي جعلها الله أمة وسطا
للناس . فوطنه كل بقعة من هذه الأرض العربية يتمنى له العزة
ويرجو له الرقي ويطلب منه أن ينبذ من عداة أبنائه الحاملين
الكسالى المتقاعدین عن نصره ووطنهم .

« وأنت أيها الوطن المحبوب : أنت العزيز على النفوس ،
المقدس في القلوب ، اليك نحن الأشباح ، وعليك تثنى الأرواح...
أيها الوطن الباكي ضعافه : عليك تبكي العيون وفيك يحلو المنون .
إلى متى يعبث خلالك اللثام الطفاه ؟ يظلمون بنيك ويذلون ذويك ،
يطاردون أنجالك الانجاب ويمسكون على المساكن الطرق والأبواب ،
يخربون العمران ويقفرون الديار ؟

ويمضي الكواكبي بعد أن يوضح لبنى قومه ما هم فيه من ظلم
الذين تحكموا في رقابهم يمضي فيقول :

أيها الوطن العزيز : هل ضاقت رحابك عن أولادك ، أم
ضاقت أحضانك عن أفلاكك ؟ ... كلا إنما فقدت الأباة ، فقدت
الحماة ، فقدت الأحرار .

أيها الوطن الملهب فؤاده : أما رويت من سقيا الدموع
والدماء ؟ ولكن دموع بناتك الثاكلات ودماء ابنائك الأبرياء ،
لادموع النادمين ولا دماء الظالمين . الا فاشرب هنيئا ولا تأسف على

البله الحاملين ، ولا تخزون قضاهم كواثما وكراثما ، لسن هن كراثما
باقيات محسسات ، وليسوا هم كراثما لعزة شهداء ، انما هم غفر
لله لهم ، من علمت ، قل فيهم الحر القيور ، قل فيهم من يقول أنا
لا أخاف الظالمين .

أيها الوطن الخثون ، كون الله عناصر أجسامنا منك ، وجعل
الأمهات حواضن ، ورزقنا الغذاء منك ، وجعل المروضات مجهزة ،
نعم ، خلقنا الله منك ، فحق لك أن تحب أجزائك وأن تحن على
أفلاكك . كما يحق لك في شرع الطبيعة أن لا تحب الأجنبي الذي
يأبى طبعه حبك ، الذي يؤذيك ولا يواليك ، ويزاحم بنيك عليك
ويشاركهم فيك ، وينقل إلى أرضه مافي جوفك من نفيس العناصر
وكنوز المعادن فيفترق ليغنى وطنه ولا لوم عليه بل بارك الله
فيه ! ..

يا قوم جعلكم الله خيرة اليوم وعدة الغد ، هذا خطابي إليكم
فما هو الترقى وما هو الانحطاط فان وعيتم ولو شذرات فيا بشري
والسلام عليكم

وهكذا يمضي الكواكبي رائد الحركة العربية الحديثة يؤدي
دوره في ايقاظ قومه حتى شبهه البعض بجان جاك روسو
ومونتسكيو وفولتير وغيرهم من كتاب الثورة الفرنسية . . .

ولم يسبق أحد الكواكبي فيما دعا اليه هذا الكاتب الكبير
كما أنه فاق كثيرين ممن جاءوا بعده ، فإذا قارناه بنجيب عزوري
وهو الذي ألف سنة ١٩٠٥ كتابا أسماه ، يقظة الأمة العربية في
آسيا التركية) نجد أن أثر الكواكبي في أمته كان أكبر ودوره كان
أعظم . ذلك أن نجيب عزوري أقام في باريس وخاطب قومه من
عاصمة اجنبية بعينة عنهم كما أنه وصفه باللغة الفرنسية حتى

ان البعض يؤكد ان الشباب العربي لم يهتم بدعوته . (١)

ومضت دعوة الكواكبي تفعل فعلها في نفوس أبناء الأمة العربية فكانت جهودهم في مقاومة السلطان عبد الحميد الثاني حتى سقط عن الحكم بعد ان اضطر تحت ضغط الثوار الى اعلان اعادة العمل بالدستور سنة ١٩٠٨ . وفرح العرب باعلان الدستور وأقيمت الزينات والمهرجانات في بيروت حيث لحن موسيقار عربي من أهالي بيروت وهو وديع صبرا نشيدا وطنيا رائعا كما غمرت بغداد هي الأخرى وغيرها من العواصم العربية الأفراح بهذا الدستور الذي جاهد العرب كثيرا في سبيل اعادة العمل به . فلما استعدي السلطان عبد الحميد القوى الرجعية على الثورة هذا الدستور بادر العرب الى العمل مع أعضاء الاتحاد والترقي لعزله .

وحين تنكر الاتحاديون لكل جهود العرب فيما بعد ومضوا في اتباع السياسة الطورانية التي استهدفت تترك الوطائف واستعلاء العنصر التركي لم يرضخ العرب لهذه السياسة الحمقاء ومضوا يقاومون ذلك فكانت مطالبهم ومؤتمراتهم التي من أهمها مؤتمر باريس الذي عقد سنة ١٩١٣ والذي اشترك فيه ممثلون عن مختلف الجمعيات العربية المختلفة في مختلف المدن العربية وعن مهاجري العرب في المكسيك والقيت فيه ابحاث ممتازة عن القومية العربية . ولم ير الاتحاديون بدا من الاسراع بالاتفاق مع العرب وعلى وجه التحديد مع ممثليهم وبعض رؤسائهم في هذا المؤتمر ومن أهم ماتضمنه الاتفاق اعترافهم بأن يكون التعليم الابتدائي والثانوي باللغة العربية في جميع البلاد العربية وان يكون تعيين اثنين من العرب عن كل ولاية عربية في مجلس الأعيان .

(١) الامير مصطفى الشهابي : محاضرات عن القومية العربية ص ٥٩

الا أن الحوادث التي توالى بعد ذلك ولا سيما اعلان الحرب العالمية الأولى دفعت بالأتراك الى عدم تنفيذ كثير مما اتفقوا عليه مع ممثلى العرب وجاءت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بعد اتصال الجمعيات العربية فى سورية به وبعد اتصاله هو الآخر بها بإيفاد ابنه فيصل اليها لتقطع كل تقارب وتفاهم بين العرب والأتراك . وقدم جمال باشا الى المشنقة كثيرين من الزعماء العرب مثل عبد الكريم خليل ، عبد الحميد الزهراوى وكان عبد الكريم خليل أول من وقف على كرسى المشنقة فى ٦ مارس ١٩١٦ قال بصوته الجمهورى .

أشهدكم أيها القوم أننا لم نأت أمرا فريا يوجب وقفنا هذه ، وانى آسف على ما أظهرته من الاخلاص للدولة منذ نشوب الحرب ، ولكن الاتحاديين أبوا الا ان يعلنوا عداوتهم لهذا العنصر الكريم الذى لا يملك من أمره شيئا واذا كان جمال باشا يتهمنا باضرار الثورة لاستقلال العرب ، فلا بد من ضحايا لهذا الاستقلال ولنكن نحن أول هذه الضحايا . »

واندلعت الثورة العربية بعد هذه المجازر التي قام بها جمال باشا فى سوريا ضد الأحرار العرب ، واذا كانت هذه الثورة لم تحقق ما كان يرجى من وارتها أو أنها تنكبت الطريق حين وضعت يدها فى يد الانجليز كى تتخلص من الأتراك فكانت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فليس هذا مما يقلل من دورها ومن دور الذين بذروا بذورها ولن ينسى التاريخ ذلك الرعيل الأول من الكتاب العرب الذين استنهضوا الهمم ودعوا الى التحرر وبثوا روح الأمل فى النفوس وعلى راس هؤلاء يقف كاتبنا الكبير السيد عبد الرحمن الكواكبي .

الفصل الخامس

الكراكي منه خيال آناه الخالدة

(دراسة لكتابيه أم القرى)

يجمع المؤرخون أن الكواكبي خلد عملين عظيمين فاق بهما
كثيرين غيره من الكتاب وهما كتابيه (أم القرى) و (طبائع
الاستبداد) .

ولقد جاء كتابه أم القرى صيحة مبكرة لليقظة العربية الحديثة
لم يسبقه اليها أحد غيره من الكتاب العرب في ذلك الحين . وليس
أدل على الابتكار وأوضح في اظهار شخصيته وسعة أفقه وخياله
من هذا الكتاب . وقد وضع الكواكبي هذا الكتاب قبل كتابه طبائع
الاستبداد . فيقول صديقه كامل الغزى أنه اطلع على الكتاب قبل
رحيله الى مصر . ويقول الاستاذ رشيد رضا في مجلة المنار
سنة ١٩٠٢ العدد الخامس ولما هاجر الى مصر كان أول أثر له فيها
طبع سجل جمعية أم القرى ، وكان يقول ان لهذه الجمعية أصلاً
وأنه توسع في السجل . ونقحه ست مرات آخرها عند طبعه
منذ سنتين ونيف أي عقب قدومه الى مصر . وقد قال لنا مرة ان
الانسان يتجرأ أن يقول ويكتب في بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه في
بلاد الاستبداد ، بل ان بلاد الحرية تولد في الذهن من الأفكار
مالا يتولد في غيرها .

ومعنى هذا ان الكواكبي ألف كتابه أم القرى قبل أن يغادرها
الى مصر لكنه أدخل عليه كثيراً من التعديلات بعد قدومه الى مصر
ونشره سنة ١٩٠٠ ثم نشره الاستاذ رشيد رضا في مجلة المنار
سنة ١٩٠٢ . اتفق رشيد رضا مع الكواكبي حين بدأ نشر كتابه

أن يحتلف منه ما يراه ماسا بالدولة العثمانية • ووافق الكواكبي
لكن رشيد رضا عاد فعدل عن ذلك ونشر كتاب أم القرى كاملا •
فقال في العدد الخامس من مجلة المنار سنة ١٩٠٢ • انتهى كتاب
سجل جمعية أم القرى وما ألحق به • وقد كنا اتفقنا مع جامعة
السيد القزاتي (تغمده الله برحمته) على نشره في المنار بتصرف
يختص بتصحيح عبارته وحذف مساويء الدولة العلية أيدها الله
تعالى منه ، ثم استحسن فضلاء القراء عدم حذف شيء منه فللمطالعين
على ما نشرناه من أول سنة المنار الى الآن أن يتقوا أنهم أطلعوا على
هذا السجل كله بعبارة أصح الا جملة واحدة ذكر فيها خديو مصر
بأنه يرجو مساعدة الجمعية • (١)

ما هي هذه العبارة التي لم يوافق رشيد رضا على نشرها
في كتاب أم القرى ؟ عبارة وردت على لسان رئيس جمعية أم القرى
بعد انتهاء جلسات الجمعية ، ان جمعيتنا هذه اختارت أن تجمع
مركزها المؤقت في مصر دار العلم والحريية ، فلها أمل قوى في أن
حضرة العزيز (عباس الثاني) يكون عضوا للقائمين باعزاز الدين
وحاميا فخريا للجمعية • ولا بدع فانه خير أمين شاب نشأ على
الغيرة الدينية والحمية العربية ، (٢) •

كذلك ذكر السيد رشيد رضا أنه لم تنشر جدول المخاطبة
الرمزية أي الرموز التي اتفق الأعضاء أن تكون رموزا لهم يتخاطبون
بها (٣) •

(١) يقول الاستاذ سامي الدمان في كتابه عبد الرحمن الكواكبي ان رشيد
رضا حذف من جمعية ام القرى ما هو ماس بالدولة العلية (ص ٥٥ من كتاب
الدمان) وهذا غير صحيح باعترااف رشيد رضا نفسه •

(٢) ص ١٨٨ من نسخة الكتاب التي نشرته المكتبة التجارية الكبرى سنة

• ١٩٣١

(٣) ص ١٦٥ من نفس النسخة •

لعل السبب في احجام رشيد رضا عن نشر العبارة التي تتضمن أمل جمعية أم القرى في تأييد الخديو لها هو أن العلاقة بين رشيد رضا والخديو عباس الثاني فترت بعد أن توثقت مثلما فترت علاقة الخديو مع الامام محمد عبده . كان رشيد رضا من أصفى أصفياء الخديو يقابله دون موعد كما سبق لنا أن أشرنا من قبل بل ربما جاء تعرف الكواكبي للخديو عباس عن طريق رشيد رضا . هاجم رشيد تولى عباس عن سياسة الحزم مع الانجليز وخاصة حادثة استعراض الخديو للجيش المحتل في ساحة قصره والوقوف تحت العلم البريطاني في يوم الاحتفال بعيد ملك الانجليز تزلفا منه وتقربا للعيد البريطاني . وكانت مجلة المنار قد وقفت بإخلاص الى جانب الشيخ محمد عبده المفتي تنشر فتاويه وتدافع عنه ضد أكاذيب الخديو والمحيطين به وخاصة تلك الصورة التي نشرها بعض المغرضين وزعموا انها لمحمد عبده في حلبة رقص يخاصر فتاة أجنبية وكلبها يعبت بأطراف جيبته . ولما كان من الواضح ان الصورة مزيفة حيث لفق المصور صورة واحدة جمع فيها صورتا متفرقة لمحمد عبده وصورة أخرى لفتاة فجمعتهما في صورة واحدة .

انبرى رشيد رضا يدافع عن الامام محمد عبده وانبرت بعض الصحف الأخرى المؤيدة للخديو ومنها صحيفة المؤيد تدافع عن الخديو ضد تهجم رشيد رضا عليه لاستعراضه للجيش الانجليزي (١) .

واقبل أن نصل العلاقات بين رشيد رضا والخديو عباس الى حد القطيعة سبقتهما فترة أخرى كانت العلاقات فيها فائرة تماما فآثر رشيد رضا أن يحذف من جمعية أم القرى ما قد يفسر

(١) عباس العقاد : محمد عبده ص ١٧٦ .

أنه يسىء للعلاقة بين الحديو والسلطان العثماني بنشره ما يفيد
تأييد الحديو لهذه الجمعية .

كذلك نجد أن النسخة التي نشرتها المكتبة التجارية بالقاهرة
سنة ١٩٣١ جاءت ناقصة في نهايتها عما أورده السيد رشيد رضا
في مجلته المنار العدد الخامس سنة ١٩٠٢ فقد جاء في نهاية ما نشره
رشيد رضا عن هذه الجمعية ما يلي :

تذكرة : من السيد الفراتي (كاتب الجمعية) بأنه ربما
يتأخر تشكيل جمعية تعليم الموحدين (وهي الجمعية التي انتهى الى
ضرورة تشكيلها المؤتمر الاسلامي الذي تخيل الكواكبي عقده في
مكة أم القرى على نحو ما سنتناوله فيما بعد) ، فالأماول -
الجمعيات الاسلامية الموجودة في الهند وفازان والقرم ومصر وغيرها
ألا تأتف من تنوير أفكارها بمباحث هذا السجل فتقتبس منه
ما يناسبها وتتخذ القانون والوظائف مثالا وذكرى . ثم رجاء من
الكواكبي يقول فيه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وعنده شمم
حمية ومروءة فلا يتجسس عن جمعيته أم القرى وأعضائها بقصد
ايصال سوء اليها ، وليعلم ان يده وان طالت الأفلاك أكثر من
الاضرار بها لأن الجمعية في أمان الاخلاص ولا يحيق المكر السيئ
الا بأهله ثم تذييل آخر بعنوان تهوين : ليعلم اسراء التقليد وورثة
الأوهام ومعظمو العظام ومؤلهو الطغام ان تألمهم من صدقة بعض
هذه المباحث لما ألفوه عنهم هو تألم مباغت لا يلبث ان يزول متى
خلوا بعقولهم وحكموا الحكمة والانصاف وتأملوا حق الايمان وناطق
القرآن وحينئذ ينجلي لهم الحق ويندمون كما ندم مثلهم الأولون
فيتوبون ويتوب الله عليهم والله يهدي من يشاء . ثم يتبع الكواكبي
ذلك بإعلان من أحب أن ينجذ مقاصد جمعية أم القرى برأى فائق
أو عمل مهم أو رغب في تعضيدها بجاه أو مال أو أراد مراسلة
الجمعية أن يرسل وكالة الجمعية بدون اسم بل بارسال كتاب بعنوان

الى مدينة - الى صندوق البوستة عدد - واذا اراد التخفى يمكنه أن يكاتبها أولا باسم له مختلق ثم يستعمل الكتابة الخيرية الموضحة في الجدول المذيل به هذا السجل . والذين يرجى منهم تعضيد مهم كحضرات الأمراء العظام والأغنياء الكرام فلهم أن يطلبوا رسولا من قبل الجمعية ليوضح لهم ما يستوضحون . (انتهى) .

وبعد أن عرضنا لأوجه الاختلاف بين بعض الطبقات في كتاب أم القرى نعود لنلقى عليه دراسة تبين قيمة مؤلفه وجهده وما تركه من أثر خالد لا ينكر على مر الأيام والأزمان .

وضع الكواكبي لكتابه عنوان (أم القرى) وهي مكة المكرمة التي تخيل فيها عقد جمعية من فضلاء المسلمين لبحث أسباب تدهور أحوالهم وتقرير الدواء بعد تشخيص الداء . وذكر أن مؤلف الكتاب هو السيد الفراتي وهو ما تكنى به الكواكبي . وناشد قراء كتابه الصبر حتى ينتهوا من قراءته حتى نهايته والا يتعجلوا نقده قبل أن يستوفوا مطالعته فقال أيها الواقف على هذه المذكرات .

اعلم انها سلسلة قياس لا يغنى أولها عن آخرها شيئا وانها حلقات معان مرتبطة مترقية لا يغنى تصفحها عن تتبعها . فان كنت من أمة الهداية وفيك نشأة حياة ودين وشمة ومروءة فلا تعجل بالنقد حتى تستوفي مطالعتها وتعي الفواتح والخواتم ثم شأنك ورأيك . أما اذا كنت من أمة التقليد واسراء الأوهام بعينها عن التبصر لا تحب أن تدري من أنت وفي أى طريق تسير وما حق دينك ونفسك عليك وإلى ماذا تصير فتأثرت من كشف الحقائق ودبيب النصائح وشعرت بعار الانحطاط وثقل الواجبات فلم تطق تتبع المطالعة وتحكيم العقل والنقل في المقدمات والنتائج فاناشدك الأهميال الذي الفته أن تطرح هذه المذكرات إلى غيرك ليرى فيها رأيه - السيد الفراتي .

ثم يقدم الكواكبي لكتابه بوصفه للعهد الذي كتب فيه كتابه (القرن الرابع عشر الهجري - أواخر القرن التاسع عشر) عهدا عم فيه الخلل والضعف كافة المسلمين ، وكان من سنة الله في خلقه أن جعل لكل شيء سببا ، فلا بد لهذا الخلل الطارئ والضعف النازل من أسباب ... دعت الجمعية بعض أفاضل العلماء والسراة والكتاب السياسيين لبحث وسائل النهضة الاسلامية فأخذوا ينشرون آراءهم في ذلك في بعض الجرائد الاسلامية الهندية والمصرية والسورية والتتارية . وقد اطلعت على كثير من مقالاتهم الغراء في هذا الموضوع الجليل واتبعت أثرهم بنشر ما لاح في حل هذا المشكل العظيم .

ثم يذكر ما أتيج له من سياحة زار فيها البلاد العربية لاستطلاع الأفكار وتهيئة الاجتماع في موسم أداء فريضة الحج . ومن الواضح أن الكواكبي كان يعلق أهمية كبيرة على موسم الحج كموسم التقاء المسلمين من كافة بقاع الأرض لأداء هذه الفريضة الغراء والتي كان أحد أسباب فرض الله سبحانه وتعالى لها لعباده المسلمين أن يشهدوا منافع لهم . ومن ثم فإن أول هذه المنافع هو بحث العلة وتشخيص المرض النازل بالمسلمين والعمل على علاجه . وتخيل الكواكبي انه في زيارته للبلاد الاسلامية المختلفة دعا من يلتبس فيه الاخلاص لدينه وأمته ورباحة العقل وأنه عباد بعد دعوته لهؤلاء الى مكة فوجد ان بعض من دعاهم قد سبقه الى مكان الاجتماع . واختار مكان الاجتماع حيا متطرفا من أحياء مكة لا ترقبه العيون واستأجر هذه الدار باسم غير اسمه لتكون مضمونة من الرقابة والتجسس .

وبدا انعقاد المؤتمر الذي ضم ممثلين للبلاد الاسلامية بما فيها بعض البلاد التي لم يزرها الكواكبي مثل مراكش وتونس . وانهقد المؤتمر من منتصف شهر ذي القعدة سنة ١٣١٦ هجرية

حتى نهايته. في اثني عشر اجتماعا. غير اجتماع الوداع حيث جرت في هذه الجلسات « مذكرات مهمة صار ضبطها وتسجيلها بكمال الدقة كما ينبغي من مطالعة هذا السجل المتضمن كيفية الاجتماعات مع جميع المفاوضات والمقررات غير ما أثرت الجمعية كتبه كما يشير إليه » .

بلغ عدد المجتمعين كما تخيلهم الكواكبي ثلاثة وعشرون عضوا بما فيهم السيد الفراتي الذي عهد إليه كتابة محاضر الجلسات . وتولى رئاسة الاجتماعات العضو المكّي على أساس أن المؤتمر منعقد في بلد . واتخذ المجتمعون شعارهم (لا نعبد الا الله) ، وتعاهدوا على الجهاد والأمانة . ووضع الرئيس منهج البحث وهو الكتمان فهو أدعى الى افاضة كل بما في نفسه صراحة . ودعاهم أن يتركوا اندماجهم جانبا ويعتمدون على صريح الكتاب وصحيح السنة حتى لا تتفرق بهم الآراء .

وحين وضع الكواكبي كتابه حث المسلمين على عدم اليأس فهو يورد على لسان رئيس الجمعية أنه لا داعي لليأس « لأن محض انعقاد جمعيتنا هذه لمن أعظم تلك المبشرات خصوصا اذا وفقها الله تعالى بعنايته لتأسيس جمعية قانونية منتظمة ... (١) » .

ونلاحظ ان الكواكبي يهتم بنظام الجمعيات فهي عنده ، تقوم بالعظام وتأتي بالعجائب وهذا هو سر نشأة الأمم الغربية . وهو بهذا مثلا يشير الى الجمعيات الثورية الإيطالية التي لعبت دورا في الوحدة والاستقلال الإيطاليين ، ومنها جمعية الكاربوناري الإيطالية التي كان هدفها مقاومة الاستبداد في كل أشكاله (٢) .

(١) الكواكبي - أم القرى ص ١٥ ط سنة ١٩٢١ المكتبة التجارية .

(٢) التاريخ الأدبي الحديث لهربرت ليهن ترجمة نجيب هاشم ووديع

الطبع ص ١٢٨

والمعروف ان الكواكبي كان من المعجبين بزعماء الحركة الايطالية
فهو يقول ومن أين لنا زعيم (ملزم) كفاريا لدى يوفق بين أمرائنا
أو يلزمهم بجمع كلمتنا .

يرى الكواكبي ان الغلبة للجماعة « وأن مبدأ أعظم الأعداد
اثنان فذلك مبدأ الجمعيات شخصان ثم تتزايد » . وهو يأمل لهذا
الشرق بجمعية تكون وظيفتها الاساسية أن تنهض بالأمة من وهلة
الجهالة وترقى بها في معارج المعارف متباعدة عن كل صبغة
سياسية .

ثم يحدد الرئيس المسائل التي ستبحثها الجمعية في عشر
مسائل رئيسية : موضع الداء - أعراضه - جراثيمه ثم وصفه .
يتبع ذلك وسائل استعمال الدواء ثم ما هو الاسلام الصحيح أو
ما هي الاسلامية ، ثم كيف يكون التدين بالاسلامية . أخيرا .
ما هو الشرك الحفى وكيف تقاوم البدع وسن قانون لتأسيس
جمعية تعليمية تسمى بجمعية تعليم الموحدين .

واستمرت اجتماعات الجمعية يومية فيما عدا يومى الثلاثاء
والجمعة وكانت جلساتها تدوم من الصباح حتى قرب موعد صلاة
الظهر حيث ينصرف الأعضاء لتأدية فريضة الصلاة ثم يواصلون
اجتماعهم فى اليوم الذى يليه .

وحين ينتهى الكواكبي من اجتماعات جمعياته الى اقرار ضرورة
وجود جمعية تعليمية هي التى أسماها جمعية تعليم الموحدين كان
أشبهه بما يكون بالامام محمد عبده حين اختلف مع الأفغانى فى
نظرته للاصلاح . رأى محمد عبده بعد أن عمل والأفغانى معا
فى اصدار جريدة العروة الوثقى أن التربية والتعليم والعمل فيها
أجلى من العمل فى السياسة . عرضت عليه (على الأفغانى)
حين كنا فى باريس أن نترك السياسة ونذهب الى مكان بعيد عن

مراقبة الحكومات نعلم وفريق من تختار من التلاميذ على مشربينا
فلا تمضي عشر سنين الا ويكون عندنا من التلاميذ الذين يتبعوننا
في ترك أوطانهم والسير في الأرض لنشر الاصلاح المطلوب فينتشر
أحسن الانتشار فقال انما أنت مشيط (١) .

وواضح أن الكواكبي كان يعلق على التعليم والارشاد
والتثقيف ما كان يعلقه الأستاذ الامام محمد عبده . وكان الكواكبي
على اتفاق في ذلك مع محمد عبده وكان (الكواكبي يشي على الامام
الثناء كله ، فقد كان يعتقد أن الامام محمد عبده أعلم من أستاذه
الأفغاني وقد خالفه رشيد رضا في ذلك فقال وهذا غلط منه (٢) .

كان الكواكبي يعلق أهمية كبيرة على تشخيص الداء الذي
ابتلى به المسلمون في أيامه ، وأن ذلك كفيلا بتقرير الدواء ، فإن
الطبيب الناجح هو الذي يتوصل إلى معرفة الداء وأنه حين يعقل
ذلك لا يستعصى عليه علاج مريضه . من أجل هذا استغرق تحديد
موضع الداء وأعراضه ثلاثة اجتماعات متصلة من اجتماعات
الجمعية .

تشخيص الداء :

بدأ الأعضاء في اجتماعهم الثاني في تشخيص الداء أو الفتور
العام الذي نزل بالمسلمين كما وصفه رئيس الجمعية وقيل أن يدلى
كل بدلوهم ذكرهم الرئيس بعلم التعقب لرأي ذاتي أو الاصرار
عليه أو الانتصار له على أساس أنهم باحثون لا متناظرون ثم اتفقوا
على أنه إذا أعجبهم رأي المتكلم أثناء خطابه فلا بأس من التعليق
عليه بلفظ مرحي وهو لفظ الاستحسان .

(١) عباس العقاد : محمد عبده من ١١٦

(٢) رشيد رضا : تاريخ محمد عبده ج ١ ص ١٥٥ .

ثم أخذوا بعد التحليل بوجود المرض يبحثون في أسبابه
وذهبوا في ذلك مذاهب شتى فالكواكبي يرى أن أول الأسباب هو
ما أصاب المسلمين من عقيدة جبرية • ويورد ذلك على لسان العضو
الشامل • فهذه العقيدة في القضاء والقدر آلت إلى الزهد في الدنيا
والقناعة باليسير والكفاف من الرزق وإماتة المطالب النفسية كحب
المجد والرياسة والاقدام على عظام الأمور والترغيب في أن يعيش
المسلم كميت قبل أن يموت • والعقيدة بهذا الشكل مثبطة معطلة
لا يرضاها عقل ولم يأت بها شرع • ويخشى الكواكبي أن يفسر
كلامه هذا على أنه ضد الزهد الذي جاء به الإسلام فيورد على لسان
العضو القدسي ترغيب للناس في الأثرة العامة أي تحويل المسلم
ثمرة سعيه للمنفعة العمومية دون خصوص نفسه • ثم يمضي
العضو القدسي (ممثل مدينة بيت المقدس) أن سبب الفتور هو
تحويل نوع السياسة الإسلامية من ديموقراطية إلى استبدادية
فأفسدت العقول وأماتت الأخلاق •

وبعد أن يبدي الأعضاء إعجابهم بما ذكره القدسي بذكرهم
كلمة مرجى كما اتفق على ذلك فيما بينهم ، يبادر العضو التونسي
يقول إن بعض الأمم الأوربية محكومة بحكومة استبدادية ولم يمنع
ذلك من تقدمها ، وإنما السبب في نظره الأمراء المترفون الأخسرون
أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون
صنعا • فمنهم (الأمراء) من بلغ جهله درجة أخط من درجة الكائنات
الحية الأدنى درجة من الانسان • فهذه الكائنات الحية لها نوااميس
وطبائع تحمي زمارها وتمنع عن حدودها • بينما هؤلاء الأمراء ليس لهم
طبائع ولا نوااميس يخرقون بيوتهم بأيديهم وهم لا يشعرون •
وهناك بعض الأمراء من هو ضال على علم فتجدهم يشكون ويكون
مع أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم يظهرون الرغبة في

الإصلاح وينطون الإصرار والعناد على ما هم عليه من فساد دينهم
ودنياهم .

أما العضو الرومى فيرى ان السبب الحقيقى لما فيه المسلمون
اليوم هو فقدهم الحرية بجميع أنواعها . ويضع الكواكبى ملاحظة
تفيد بأن العضو الرومى هذا هو من أهل القسطنطينة الذين حرم
عليهم مجرد التلفظ بكلمة حرية وجمعية ووطن . وهو بهذا يشير
الى ما فرضه السلطان عبد الحميد الثانى من استبداد فاق فى قوته
أى نوع من الاستبداد الآخر حتى أصبح الانسان يحاسب على
الكلمة ولو لم يقصد بها شيئا فبمجرد ذكر كلمة حرية أصبحت من
الكلمات المنسوخ استخدامها وكذلك ذكر قتل واغتيال ملك
أو أمير (١) .

ويمضى الكواكبى فى القول على لسان العضو الرومى ان
المسلمين حرموا من الحرية بكافة أنواعها حرية التعليم والخطابة
والبحث العلمى . ومما لا شك فيه ان الحرية أعز شئ على الانسان
بعد حياته وأنه بفقدانها تفقد الآمال وتبطل الأعمال وتموت النفوس
وتتعطل الشرائع وتختل القوانين بينما كان هناك المسلمون الأوائل
لا يخافون من الخليفة فيخاطبون أمير المؤمنين بقولهم يا عمرو
ويا عثمان . فصرنا ربما نقتل الطفل فى حجر أمه ونلزمها
السكوت فتسكت ولا تجسر أن تزعج سمعنا ببنائها عليه .

(١) يورد الأستاذ ساطع الحصرى فى كتابه البلاد العربية والدولة العثمانية
من ١٠٠٠ حادثة طريفة تفيد انه حين قتل ملك العرب فى بلغراد منع السلطان
عبد الحميد ذكر الخبر ونشرت الصحف الحادث على أنه موت طبيعى كما أرسلت
وزارة الداخلية الى جميع الولايات برقيات مستعجلة لمنع دخول جميع الجرائد
الأجنبية التى نشرت خبر الاغتيال وذلك حتى لا يخطر على بال أحد من وعية الدولة
امكان اغتيال ملك من الملوك . وعلى هذا النحو كان عبد الحميد يلتمس الى التفكير
فى أبعد الاحتمالات .

وبينما يرى العضو الرومى أن فقدان الحرية سبب الفتور والتقاعس عن كل صعب وميسور ، يرى العضو التبيري أن السبب ترك المسلمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع أن إزالة المنكر فى شرعنا تكون بالفعل فإن لم يكن فبالقول فإن لم يكن فبالقلب . . .

ثم يتناول الكلمة العضو القامى أن شريعة السلف الصالح كانت شريعة سمحاء واضحة المسالك فكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة لكل مسلم ومسلمة .

كان الكواكبي يريد أن يعود الدين الى بساطته الأولى الغابرة والتي أوحى بها النبی صلى الله عليه وسلم على اعتبار أنه الأصلح للمجتمع الاسلامى . وكان العرب آنذاك يجاهرون بعدائهم لحكم الفرد وكرههم له ويرثون لحال الأمم التي وضعت نفسها تحت رحمة رجل واحد وكانوا يفتنون الاستبداد الذي هو أصل كل بلاء .

كان الخليفة فى صدر الاسلام ينتخب ولكل مسلم حسن الخلق سديد الرأى حق الانتخاب وكان حفل تنصيب الخليفة يعرف بالبيعة وهو عمل طوعى مؤداة الاعتراف بالخليفة والولاء له . وكان الخليفة يعتبر الأول بين أئداده . فالناس يخاطبونه باسمه دون أى لقب وتفخيم ، وفى كتب الأخبار العينية سنة ٧١٣ م حدثت زيارة وفد عربى من اثنى عشر شخصا الى البلاط الامبراطورى فأحدثت تصرفاتهم دهشة لدى الامبراطور وحاشيته عندما مثل أعضاء الوفد بين يدى الامبراطور ورفضوا السجود له (١) . ذلك أن الشعور بكرامة الانسان كانت متأصلة فى نفوس العرب الى درجة أنهم لم يكونوا يتصورون انسانا يذل نفسه أمام أحد غير الله سبحانه عز وجل .

(١) د. نجلاء عز الدين العالم العربى ص ٤٦ ترجمة د. محمد عوض محمد

وآخرين

ثم تناول الكلمة العضو القاسى فذكر أن سبب فتور المسلمين هو إهمالهم الاهتمام بالدين ويمجد الاسلام فى أيامه الأولى على عهد السلف الصالح حين كانت الشريعة سمحاء واضحة المسالك معروفة الواجبات والمناهى فكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة لكل مسلم ومسلمة ؛ ثم دخل فى ديتنا أقوام ذوو بأس ونفاق أقاموا الاكتساب مكان الاحتساب • وحصروا اهتمامهم فى الجباية واستخدموا لذلك جندهم ، وادى انحصار الأمراء الدخلاء فى الجباية والجنودية لإهمال الدين كلية • ولم يبق للدين عندهم من أثر الا على رموس الألسن • ولم يعد يتمسك الأمراء بالدين الا بقصد تفسير الآيات تفسيراً يمكنهم من بسط سلطانهم على الضعفاء مثل قوله تعالى :

(أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وقوله تعالى

(وجاهدوا فى سبيل الله) ، مع اغفالهم ان الجهاد المأمور به ما يستحصل اعزاز كلمة الله •

وقد كان المسلمون أعزاء يوم توثقت الرابطة الدينية بينهم فلما انحلت ضاعت الأخلاق ففتروا وخمدوا •

ويتمنى الكواكبي أن تقوى الرابطة الدينية بين المسلمين كسبيل الى تقوية الرابطة بينهم ثم هو يرى ان فقد الرابطة الدينية ليست سبباً للفتور العام وحدها بل يؤكد على لسان العضو المدنى (الممثل للمدينة المنورة) ان الطاقة الكبرى جاءت من العلماء المدلسين •

وللكواكبي موقف معروف مشهور بين العلماء الدينين الذين نسوا وظيفتهم الهامة وهى انهم يحكم كونهم ورثة الأنبياء عليهم واجب الهداية الحقة الخالصة من كل الشوائب الباطلة • يرى الكواكبي انه نظرا لما للعلماء من مكانة اجتماعية مرموقة

فقد ظهر من ينافس هؤلاء العلماء . لكنه يرى أن هؤلاء المنافسين للعلماء هم قوم مدعين العلم مدلسين على المسلمين بتأويل القرآن مالا يحتمله فادخلوا من البدع في الدين ما ليس فيه كالعلم الملدني وترتيب المقامات ووراثه السر والرهينة وأصبحوا كرجال الكهنوت في مراتبهم وتميزهم في السنهم .

ومن المعروف أن الكواكبي حصل حملة شعواء على أولئك المتصوفين الذين جاءوا إلى الدين بما ليس فيه .

يقول الأستاذ رشيد رضا وهو يؤرخ للأستاذ الامام محمد عبده . طالما فكر محبو الإصلاح من عقلاء المسلمين في اصلاح شأن المنتمين إلى طرق الصوفية وانتقاهم من خيالاتهم الفاسدة ، وبدعهم الفاضحة ، بل اخراجهم من جحر الضب الذي دخلوه وهم لا يشعرون فلم يهتد أحد إلى ذلك سبيلا . ولما هاجرت إلى مصر سنة ١٣١٥ هـ كان أول اصلاح سعيت إليه أن حاولت اقناع شيخ مشايخ الطرق الصوفية الشيخ محمد توفيق البكري بالقيام بهذا الإصلاح وقلت له مرارا ان الإصلاح لا يقوم الا برجال من أهل العلم الصحيح والأخلاق والغيرة والاستقامة يناط بهم أمر هذه الطرق . ثم علمت بعد طول السعي أن ما حاولت الاستعانة بهذه السلطة الرسمية على هذا الإصلاح الروحي يكاد يكون محالا

ويمضي السيد رشيد رضا يقول : وقد جرت المذاكرة في ذلك بيني وبين صديقي السيد عبد الرحمن الكواكبي ، وكان يرى ان اصلاح هذه الطرق أو الإصلاح من بابها محال . فقلت أرايت اذا اقنعنا بعض اخواننا الصادقين في حب الإصلاح العالمين بطرق الارشاد بأن يكونوا شيوخا لهذه الطرق المشهورة - ألا يستطيعوا أن يقفوا بعادة أهل طريقتهم عند حدود السنة ويربوا طائفة من المريدين تربية جديدة ؟ فقال (الكواكبي اننا جربنا ذلك في حلب

فأقنعنا رجلا من أمثال هؤلاء الذين تعنيهم بشحو ما ذكرت فكان عاقبة أمره معهم أن أفسدوه ولم يصلحوه وأنس بهذه الرياسة وآثرها فخرناه بها ، (١) .

ومضى الكواكبي يحمل على أولئك الذين ادعوا التصوف فقال « ومن العادة أن يلجأ ضعيف العلم الى التصوف كما يلجأ فاقد المجد الى الكبر وكما يلجأ قليل المال الى زينة اللباس والأثاث (٢) » .

ونمضى مع الكواكبي في كتابه أم القرى وهو يحمل حملة عنيفة على هؤلاء الذين سماهم بالمندلسين الذين سحروا عقول الجهلاء فجعلوا التعبد لهم ولعبا وذلك أهون على النفس والطبع من القيام بتكليفات الشرع كما وصف الله تعالى عبادة المشركين فقال (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية) أي صفيرا وتصفيقا وهؤلاء (المتصوفون) جعلوا عبادة الله تصفيقا وشهيقا وخلاعة ونعيقا .

ويذكر الكواكبي ان هذا الرأي الذي أبداه ممثل المدينة المنورة في الاجتماع قد أبداه الأعضاء بذكرهم كلمة (مرخي) كما اتفق على ذلك في بدء اجتماعاتهم .

ثم يضيف العضو الرومي الى ذلك ان الداء الدفين هو دخول الدين تحت ولاية العلماء الرسميين وبعبارة أخرى تحت ولاية الجهال المتعتمدين .

ويمضى الكواكبي على لسان العضو الرومي في الاجتماع الثالث لجمعية يقول ان هؤلاء المتعتمدين في البلاد العثمانية اتخذوا لأنفسهم قانونا سموه (طريق العلماء) وجعلوا فيه من الاصول

(١) رشيد رضا - تاريخ محمد عبده الجزء الأول ط . ص ١٢٩

(٢) الكواكبي - أم القرى ط المكتبة التجارية سنة ١٩٢١ ص ٣٥

ما أنتج منذ قرنين الى الآن ان يصير العلم منحة رسمية تعطى للجهال
حتى للاميين بل للأطفال ! •

ويحمل الكواكبي على السلطان عبد الحميد اغداقه الألقاب
على أناس لا يمتون للعلم بشيء فيصدر المنشور الرسمي من قبله
ليصفهم بل ليصف بعضهم وهم ما زالوا أطفالا بأنهم أعلم العلماء
المحققين ثم اذا شب بعضهم عن الطوق يخاطب بأنه (أفضل
الفضلاء المدققين) (وأقضى قضاء المسلمين معدن الفضل واليقين
رافع أعلام الشريعة والدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين) ويظل
السلطان يفتدق عنده من الألقاب حتى يوصف (أعلم العلماء المتبحرين
وأفضل الفضلاء المتورعين ينبوع الفضل واليقين) الى آخر ما في
تلك التأشير من الكذب المشين ! •

ويرى الكواكبي أن هؤلاء المتعممين قابلوا انعام السلطان
عليهم بهذه الألقاب بوصفهم اياه ومخاطبتهم له (بالمولي المقدس ذي
القدرة صاحب العظمة والجلال المنزه عن النظر والمثال واهب الحياة
ظل الله خليفة رسول الله مهبط الهامات مصدر الكرامات سلطان
السلطين مالك رقاب العالمين ولي نعمة الثقلين وملجأ أهل الخافقين)
وكلها ألقاب شرك بالله وتؤدي الى غضبه وتدفع بقائلها الى التهلكة •

ويحمل الكواكبي على هؤلاء المدعين للعلم والعلم منهم براء
فيعضهم لا يحسنون قراءة نعتهم المزورة ! وبعضهم يشرك بالله
يلبسون كما كان يلبس كهنة الروم •

ويحمل على قضاة القسطنطينية أنهم أهملوا حكام الشرع
وجعلوا المناصب تباع وتشترى وقصروها على المتعلمين المنافقين
وبهذا انحصرت الوظائف الدينية في الجهلاء والمنافقين ولم يقتصر
الأمر على القسطنطينية وقضاتها من وجهة نظر الكواكبي بل ان كل
ولاية من ولايات الدولة العثمانية (بعد صدور قانون الولايات) أصبح

يشارك في مجلس إدارتها عام أو أكثر يحكم مع واليها فيما لم ينزل به الله كالربا وكثير من المسائل التي لا تمشي مع تعاليم الشرع ثم يقول ، وكان الأليق والأنسب بالاسلامية أن يبقى العلماء بعيدين عن ذلك ، .

كان الكواكبي يريد أن يكون عالم الدين حيث كان سلفه الصالح يتقرب له الحاكم ويهابه لا يتقرب هو للحاكم ويتملقه ، فإذا ما استبد الحاكم كان أول من يتصدى له العلماء يقفون في وجهه لأنهم حماة الدين وورثة الانبياء . ومن أجل هذا فالكواكبي لا يسمي هؤلاء الذين يعينون الأمير أو الحاكم على ظلمه ويجعلونه يعادى الشورى - بالعلماء وإنما يسميهم المتعممين أي الذين ادعوا أنهم علماء وما هم من العلم في شيء .

يقول الكواكبي « ومن أهم دسائس هؤلاء المتعممين أنهم ينفثون في صدور الأمراء لزوم الاستمرار على الاستقلال في الرأي وإن كان مضرا ومعاداة الشورى وإن كانت سنة ، المحافظة على الحالة الجارية وإن كانت سيئة . ويلقون عليهم بأن مشاركة الأمة في تبرير شئونها وإطلاق حرية الانتقاد لها يخل بنفوذ الأمراء ويخالف السياسة الشرعية ... » (١)

ويخلص الكواكبي من ذلك إلى القول أن هؤلاء الجهلاء الذين تمتعوا بمزايا العلماء العاملين واغتصبوا أرزاقهم - قد ثبطوا الهمم وقلت الرغبة لديهم في تحصيل العلم فجعلوا تحصيله وسيلة للارتزاق وهكذا فسد العلم وقل أهله .

والكواكبي حريص على العناية بدراسة العلوم العقلية وخاصة العلوم الرياضية والطبيعية ويورد ذكر إهمال المسلمين لهذه العلوم على أنه السبب فيما عمهم من فتور وتخاذل ويود لو عني المسلمون

(١) الكواكبي - أم القرى ص ٢٥ .

بدراسة العلوم الطبيعية والحكمية لأصبحوا بعد الاكتشافات الجديدة
يؤمنون بالله عن يقين بعد أن تكشف لهم بفضل هذه العلوم كثيرا
من قدرته وعظمته ولا تضح لهم ان العلماء الأوربيين لم يأتوا بجديد
في مكتشفاتهم فكل ما ذكروه قد أشار اليه القرآن الكريم . ويذكر
الكواكبي كثيرا من الامثلة على صدق هذا القول على لسان العضو
الكردي : « أضحي المسلمون محتاجين للحكمة العقلية التي كادت
تجعل الغربيين أدري منا حتى في مباني ديننا كاستدلالهم بالمقايسة
على أن نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام أفضل العالمين عقلا وأخلاقا
وكأبائهم بالمقابلة أن ديننا أسمى الديانات حكمة ومزية . وعندى
أنه لولا هذا القصور ما وقع المسلمون في هذا الفتور . »

ثم يطالب الكواكبي بعدم اليأس فهو يرى ان يأس المسلمين
من مناقسة الامم الاخرى هو أحد أسباب التخلف فهو يطالب بالحث
والسعى وعدم الاستسلام لدعاة الجزع وأنصار التخاذل . وأهمية
دعوة الكواكبي أنها جاءت في وقت ران اليأس فيه على النفوس
واستسلم الجزع فيه على القلوب فالبلاد العربية تقع تحت يرائن
الاحتلال الاجنبى ، فالجزائر تحت الاحتلال الفرنسى ومعها تونس
ومصر والسودان تحت الاحتلال الانجليزى والبلاد العربية الاخرى
الواقعة تحت حكم السلطان عبد الحميد فى تخلف واستبداد لم
تشهد له مثيلا من قبل . ومن هنا تبدو أهمية دعوة الكواكبي التي
جاءت تبديد دياجير الظلام وتبشر بفجر من الأمل الكبير .

وتلمس الحماس وراء كل كلمة يكتبها الكواكبي فى هذا
المجال وتحس بالقوة وتشعر بالعظمة التي ملأت جوانب هذا الرائد
الكبير ، كنا علماء راشدين وكان جيراننا متأخرين عنا فعرفنا البقاء
فتمادوا واجتهدوا فلحقونا ولبثنا نياما فاجتازوا وسبقونا وتركونا
وراء زطال نومنا فبعث الشوط حتى صار ما بعثد ورائنا وراء .
فصغرت نفوسنا وفترت هممتنا وضعف احساسنا فيئسنا من اللحاق
والمجاراة وخرجنا من ميدان المنافسة والمباراة والسنتنا تفيض

بقولنا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص فعدنا الى كهف
 النوم مستسلمين للقضاء نطلب الفرج بمجرد التمنى والدعاء ، (١)
 وقد أحسن السيد كامل الغزى في وصفه لأسلوب الكواكبي
 بقوله انه كان يختار للمعنى لفظا على قدر المعنى لا يضيق ولا يتسع
 لغيره وهذه هي البراعة في اللغة وما تولفه مفرداتها من المركبات
 الاسنادية وكان لا يعبا بزخرفة الالفاظ ولا يكثر من الاستعارة (٢)
 وقضى مع الكواكبي في عرضيه لأسباب ما وصفه بالفتور
 العام بين المسلمين والذي ذكر فيه الاسباب المتنوعة المختلفة على
 لسان أعضاء جمعيته التي تخيل عقدها في مكة أم القرى .
 فيرى ان من بين أسباب هذا الفتور الفقر الآخذ بالزمام لأن
 الفقر قائد كل شر ورائد كل نحس ، فمنه جهلنا ومنه فسساد
 أخلاقنا .

ويبدع الكواكبي غاية الابداع حين يدعو الى ان الدين الاسلامي
 دين الاشتراكية بما قرره من حق الفقراء في أموال الأغنياء فقلبت
 الحكومات الاسلامية الموضوع فصارت تجبي الاموال من الفقراء
 والمساكين وتبذلها للأغنياء وتحابي بها المسرفين والسفهاء .
 ومنرى عند دراستنا لكتابه طبائع الاستبداد كيف كانت دعوة
 الكواكبي الاجتماعية تتمثل فيها كل مثل الاشتراكية ومبادئها
 فكان بذلك أول من نادى بأن يكون الاجر على قدر العمل والى تحديد
 الملكية على نحو ما سنعرض له فيما بعد .

(١) الكواكبي - أم القرى ص ٥١ .

(٢) كامل الغزى : مجلة الحديث سنة ١٩٢٩ العدد السادس ص ٤٠٤ وما
 بعدها : تاريخ ما أمته التاريخ من سيرة عبد الرحمن الكواكبي بطل الحرية
 وفقيه الشرق .

ويرى الكواكبي ان الزكاة التي جاء بها الاسلام فرضا من فروضه وركنا من أركانه الأساسية إنما قصد بها إذا ما عاش المسلمون مسلمين حقيقة (يؤدون تلك الفريضة) آمنوا الفقير وعاشوا عيشة الاشتراك العمومي المنتظم الذي يتمناه أغلب الدول الأخرى التي تدعى المدنية والتقدم . فإذا كانت تلك الأمم تنادي بما يسمى الاشتراكية والقصد منها التقارب والتساوي في الحقوق فإن أداء الزكاة يكفل للمسلمين ذلك كما سبب إهمالها فقد الثمرات العظيمة من معرفة فضلها .

ويسوق الكواكبي على لسان العضو المسلم من بلاد الإنجليز فضل الزكاة وحكمة التشريع في أمور كثيرة مثل نسيانهم بالكلية حكمة تشريع الجماعة وصلاة الجمعة والحج .

وفي الوقت الذي أخذت الأمم الأخرى عن الاسلام أموراً كثيرة منها تخصيصها يوماً في الأسبوع للراحة من العمل ، يعقد الناس فيه اجتماعاتهم وندواتهم يتباحثون ويتناجون . وهذا نفس ما رمى إليه التشريع الاسلامي حين جعل صلاة الجمعة صلاة جماعة . ففي الوقت الذي أهمل المسلمون كثيراً من شئونهم أخذ الآخرون عنهم قضائل دينهم فتقدموا عليهم وسبقوهم في ميادين كثيرة بسبب ذلك .

ثم يعود الكواكبي ليحمل على العلماء المنافقين ويرى أن أفضل الجهاد في الله هو الخط من قدر العلماء المنافقين والجهال وتخويل احترام الناس للعلماء العاملين حتى إذا رأى الحكام ذلك انقلدوا بهم أيضاً واضطروا لاحترام العلماء .

وللكواكبي اهتمام خاص بالعلماء وبوظيفتهم في الأمة الاسلامية فهم أهل الحل والعقد الذين لا تنعقد شرعاً الامامة إلا ببيعتهم وهم رؤساء الأمة ووكلاء العامة ويستعرض تاريخ الأمة الاسلامية فيرى

أن ضعفها أو قوتها مرهون بضعف أو قوة أهل الحل والعقد فيها واشتراكهم في تدبير شئون الأمة • ويخلص إلى أن ضعف الأمة الإسلامية في الوقت الذي عاشه الكواكبي مرجعه ضعف العلماء وتملقهم للأمراء والحاكمين ، وهم يفعلهم ذلك مكنوا الأمراء من الاستبداد •

وبعد أن استغرق بحث اعراض الداء النازل بالمسلمين وأسبابه وجرائمه ثلاث جلسات ، بدأ الأعضاء في اجتماعهم الرابع ينتقلون إلى بحث مسألة أخرى من المسائل التي أدرجوها في جدول أعمالهم وهو تعريف الدين الإسلامي أو ما هي الإسلامية ؟

وجاء الكواكبي بدراسة لهذه المسألة على لسان العضو النجدي وكأنه يريد أن يقول أن الإسلام الصحيح هو إسلام أهل نجد ومن ثم فإن العضو النجدي أقدر الناس على أن يتناول ذلك ، فأهل مكة أدري بشعابها كما يقول المثل •

يدعو الكواكبي إلى ضرورة اتباع القرآن والسنة دون تأويل أو تحريف • والكواكبي في هذا يريد أن يعود الدين الإسلامي إلى بساطته الأولى التي كان عليها في صدر الإسلام وهو في هذا شبيه بابن تيمية الذي كان يدعو إلى نفس ما دعا إليه الكواكبي في هذه الناحية ، ويتفق الكواكبي مع ابن تيمية بأنه لا سبيل إلى عزة الإسلام إلا بالقضاء على مظاهر الشرك المختلفة رفاق من يعتقد أن هناك غير الله قادر على قضاء حاجته ويرجو عنده الخير فهو مشرك بالله •

ومن البحوث الممتعة التي جاء بها الكواكبي في كتابه أم القرى بحثه عن الشرك فهو يفسر كلمة الإيمان ومعناها الطاعة والتسليم بدون اعتراض ويشرح كلمة العبادة بالتذلل والخضوع ثم التوحيد بمعنى العلم بأن الشيء واحد ، وأن الواحد والأحد صفتان لله

معناها المنفرد الذي لا نظير له أو ليس معه غيره . وكانت مهمة
الرسول الأولى هي جعل الناس لا تعظم غير الله وأن نبينا صلى الله
عليه وسلم لبث عشر سنين يقامى الأهل في دعوتيه الناس إلى
التوحيد فقط وسمى أمته الموحدين .

ويعد أن يمضى الكواكبي يشرح شرحا مستفيضا معنى إياك
تعبد وإياك نستعين وأن معناها الاستعانة بالله مقرونة بعبادته .
فإذا جاء بعض المسلمين اليوم يعبدون الله ويستعينون بغيره من
الأولياء الصالحين ، وغيرهم فهم يعبدون عن عبادة الله وأصبح هناك
مسلمون يخترعون عبادات وقربات لم يأت بها الإسلام ومنهم
جماعة اتخذوا دين الله لهوا فجعلوا العبادة غناء ورقصا . ثم هو
يحمل على التصوف فيرى أن الدين الإسلامى كان تقيا حتى أواخر
القرن الرابع الهجرى ثم بدأ قوم يدخلون فى الدين ما لم يكن فيه
(كان قبينا ترك لنا دينا ناقصا فهم أكملوه) .

ويلقى الكواكبي التبعة فيما دخل على الدين من الخرافات
والزيف والبطلان والبدع - على العلماء وهو ينهى باللائمة على
المتشددى من العلماء مثلما يحمل فى شدة على المتهادين منهم فلا
تفريط ولا إفراط . وفى الحديث هلك المتنطعون أى المتشددون فى
الدين .

وعند بدء الاجتماع الخامس للجمعية قرر رئيسها تفويض لجنة
لوضع مشروع قانون لجمعية دائمة واقترح أن ينضم لعضوية
هذه اللجنة من له خبرة من الأعضاء بقوانين الجمعيات العلمية ونظمها
وعين لوظيفة مسكرتير هذه اللجنة السيد الفراتى وضمت العضو
الهندي والتركي والمصري والعضو المسلم من بلاد الانجليز .

ثم تمضي الجمعية في مناقشتها تاركة للجنة المتفرعة عنها أن تتحدد مواعيد اجتماعاتها الخاصة ، ويمضي الكواكبي يقص علينا على لسان العضو التجدي (من أهل نجد) كيف أن أصول الدين الاسلامي بل بعض فروع الشريعة الاسلامية متفق عليها لأن لها في القرآن والسنة أحكاما صريحة قطعية الثبوت . أما الخلافات فهي في فروع تلك الأصول وفي بعض الأحكام التي ليس لها في القرآن أو السنة نصوص صريحة .

ونجد الكواكبي يثنى الثناء كله على أهل الجزيرة العربية الذين ما زالوا على مذهب السلف في الدين بعيدين عن التفتن فيه يتبعون أصول اجتهاد الامام زيد بن علي زين العابدين (الزيديين) أو أصول الامام أحمد بن حنبل ويمدح العلماء عند أهل الجزيرة فاعالم عندهم من اتصف بصفات خمس : المأما باللغة العربية المضرية القرشية ، قارئا لكتاب الله تعالى قراءة فهم متعمقا في معانيه متضلعا في السنة النبوية ، واسع الاطلاع وصاحب عقل سليم فطري لم يفسد ذهنه المنطق والجدل والفلسفة اليونانية وما اليها وهم (العلماء) لا يقلدون الا بعد الوقوف على دليل من يقلدون يأخذون من القرآن احكامه ثم ما لم يجدوه في كتاب الله أخذوه من صحيح سنة رسول الله . فاذا لم يجدوا في المسألة حديثا أخذوا باجماع علماء الصحابة .

والكواكبي فيما يقول متفق تماما مع ما جاء به ابن تيمية الذي رأى ان الشريعة الاسلامية أصلها القرآن والسنة ورأى أن ترجع احكام الشريعة اليهما وحدهما دون غيرهما فان لم يوجد في الكتاب والسنة ففي أقوال الصحابة والتابعين . وكان يرى الاقتصاد على طبقات ثلاث بعد النبي هي طبقة الصحابة وتابعيهم ثم تابعي التابعين فقط دون غيرهم .

وإذا كان ابن تيمية قد قال بأنه لا ينبغي أن تقلد إماما في موضع سنة عرفناها وأورد قول الإمام مالك إنما أنا بشر أصيب وأخطيء ، كذلك قال الكواكبي (وهو يشن على أهل الجزيرة العربية حيث يرفض العلماء أن يفتوا في مسألة مطلقا ما لم يذكروا معها دليلها من الكتاب أو السنة أو الإجماع) - أن الإمام مالك رضي الله عنه كان يقول ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله .

وأورد الكواكبي عبارة قالها ابن تيمية للإمام الشافعي هذا رأيي فإن صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط . كما أورد عبارات لابن حنبل وأبي حنيفة يدعوان الناس فيها إلى أن يكون أساسهم القرآن والحديث .

ويخلص الكواكبي من ذلك مثلما خلع ابن تيمية إلى أن الشريعة الإسلامية أصلها القرآن وإن نبي هذه الأمة قد فسر القرآن وإن الذين تلقوا ذلك التفسير هم الصحابة ثم نقلوها إلى التابعين .

كان الكواكبي في بحثه ذلك يريد القول أن الدين الإسلامي ينبغي أن ينتقى من كل ما علق به من شوائب ومن كل ما دخله من بدع وإضاليل من جانب أقوام أصبحوا أصحاب طرق دينية وصوفية أساءوا إلى هذا الدين ولم يفيدوه في شيء .

والكواكبي حين يحمل على الطرق الصوفية لا يكره التنسك الذي كان شيمة لأكثر الصحابة والتابعين وإنما هو يحمل على هؤلاء الذين اتخذوا من التصوف مهنته واستغلوا جهل العامة فأصبح لهم (لأصحاب الطرق الصوفية) مقاما ك مقام النبوة بل الألوهية بما ادعوه من قوة قدسية وتصرف في ملكوت الله . واتوا بخزعبلات وتأويلات وخيالات وأوهام وألفوا الكتب الكثيرة المحشوة بالكاذب والقضايا والتركيبات الغير مفهومة .

يرى الكواكبي أن الإسلامية كانت منعها خالصة من شوائب الزوائد والتشديد لأن الإسلامية التي هي أحكام القرآن وما ثبت من السنة وما اجتمعت عليه الأمة في الصدر الأول ليس فيها ما يباه عقل أو يناقضه تحقيق علمي . ثم هو يقول لو فهمنا الدين الإسلامي على بساطته لم نصل إلى اصلاح حالنا فحسب ، بل لجذبنا إليه كثير من غير المسلمين المتنورين الاحرار فجعلناهم يتبعون هذا الدين وحفظنا كثيرا من أبناء المسلمين من هجرهم لهذا الدين الذي أسأنا إليه لتشددنا تشديدات مبتدعة .

ثم هو يورد بحثا تاريخيا على لسان العضو التبريزي (من تبريز) يوضح ان الاسلام تعرض لفتنتين كبيرتين : الأولى التنازع على الخلافة والملك فتفرق المسلمون في الدين لتفرقهم في السياسة وهو بهذا يشير إلى الفتنة التي بدأت تواجه المسلمين بعد مقتل عثمان والصراع بين أنصار علي ومعاوية .

أما الفتنة الثانية فهي ما شهدته المسلمون على عهد الخلافة العباسية حين اتسعت شقة الخلاف في المذاهب بين المسلمين حتى استحال الرجوع إلى الفروع ولا إلى الأصول فاطمأنت الأمة إلى التقليد وصار أبنائها يحسنون الظن في كل ما يجدونه مدونا بين دفتي الكتاب لأنهم رأوا التسليم أهون من التبصر وصار أهل كل اقليم يتعصب لمؤلفات شيوخهم ويتخذون الخلافات مدارا لتطبيق الاحكام على الهوى . وأصبح اختلاف الأمة سببا للتفرقة الدينية والتباغض بين المسلمين .

وما أسوأ التعصب وما أضره على الاسلام والمسلمين ، يرى الكواكبي ان التعصب هو آفة الآفات لهذه الأمة الإسلامية فقد خالف المسلمون قول الله تعالى أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه . ويدعو الكواكبي علماء الهداية والمخلصين لدينهم أن يقاوموا فكرة التعصب

لمذهب دون الآخر فيكون سعيهم منتجا للتأليف وجمع الكلمة
في الأمة .

ويبدأ الأعضاء منذ اجتماعهم السابع في الاستماع الى تلخيص
للأسباب التي أبدوها لفتور الأمة الاسلامية يقوم بالقائها السيد
الفراتي (كاتب الجمعية) .

ويرجع الكواكبي الاسباب الى أمور دينية وأخرى خلقية وثالثة
سياسية . وكل سبب من هذه الاسباب منها أصول وفروع ترمز
للأصول بحرف أ وللفروع بحرف الفاء من الأصول في الاسباب
الدينية .

- ١ - تأثير عقيدة الجبر على أفكار الأمة .
- ٢ - تأثير فتن الجدل في العقائد الدينية .
- ٣ - الاسترسال للتخالف والتفرق في الدين .
- ٤ - الزهول عن سماحة الدين وسهولة التدين به .
- ٥ - تشديد الفقهاء المتأخرين في الدين خلافا للسلف .
- ٦ - ادخال العلماء المدلسين والمغاييرية على العامة كثيرا من
الأوهام .
- ٧ - ادخال العلماء المدلسين على الدين مقتبسات كتابية
وخرافات وبدعا مضرّة .
- ٨ - ايهام الدجالين والمداجين ان في الدين أمورا سرية وأن
العلم حجاب .
- ٩ - اعتقاد منافاة العلوم الحكيمة والعقلية للدين .
- ١٠ - الغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة وجمعية الحج .

ومن الفروع في هذا الباب

- ١١ - تهوين غلاة الصوفية الدين وجعلهم آياه لها ولعبا .

١٢ - إفساد الدين بتفتن المذاهب بمزايدات ومتروكات وتأويلات .

١٣ - التعصب للمذاهب والآراء المتأخرين وهجر النصوص ومسلك السلف .

١٤ - العناد على نبد الحرية الدينية جهلا بميزتها .

١٥ - تطرق الشرك الخفى أو الصريح الى عقائد العامة .
وأما الأسباب السياسية فتتضمن مسائل أساسية (أصولاً) وأخرى فروعاً فمن الأصول :

١ - السياسة المطلقة من السيطرة والمسئولية .

٢ - حصر الاهتمام السياسى بالجباية والجنديّة فقط

٣ - اعتبار العلم عطية يحسن بها الأمراء على الأخصاء وتفويض خدم الدين للجهلاء .

٤ - قلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وإعطائها للفقراء (يقصد الكواكبي بذلك عدم الأخذ بتشريع الزكاة فانقلبت الآية فأصبحت الأموال تؤخذ من الفقراء لتعطى للأغنياء) .

٥ - إبعاد الأمراء والنبلاء والأحرار وتقريبهم المتعلقين والأشرار .

ومن فروع هذا الباب

١ - فقدان قوة الرأى العام بالحجر والتفريق .

٢ - مراغمة الأمراء السراة والهداة والتنكيل بهم .

٣ - فقدان العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة .

٤ - ميل الأمراء طبعا للعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين

ثم تأتى بعد ذلك الأسباب الخلقية :

من الأصول :

- ١ - الاستغراق في الجهل والارتياح إليه
- ٢ - انحلال الرابطة الدينية والاحتسابية
- ٣ - التباعد في المكاشفات والمفاوضات في الشئون العامة .
- ٤ - فقدان التناصح وترك البغض في الله .

ومن الفروع :

- ١ - غلبة التخلق بالتملق تزلفا وصغارا .
 - ٢ - اهمال طلب الحقوق العامة جنبا وخوفا من التخاذل
 - ٣ - فساد التعليم والوعظ والخطابة والارشاد .
- ولم نشأ ان نأتى بعصر شامل بكل ما ذكره الكواكبي من أسباب سوء ما جاء منها في باب الأصول أو الفروع وانما اكتفينا بذكر بعضها تمشيا مع ما مضينا فيه من الحديث في ههنا الفصل وهو عرض شامل وعام لكتاب أم القرى ونخيل القارىء الكريم للرجوع الى هذا الكتاب كي يلم بكل الاسباب التي جاء بها الكواكبي ولخص فيها أسباب الانحطاط النازل بالامة الاسلامية .
- وبعد أن عرض الكواكبي لهذه الأسباب تناول بالذكر والتخصيص دور العثمانيين في تدهور الأمة الاسلامية .

انتقد الكواكبي في شدة سياسة الدولة العثمانية وادارتها لاقاليمها ، فهو يرى أن الخلل جاء للدولة في الستين سنة الاخيرة (السابقة على وضعه لكتابه) وذلك حين اندفعت الدولة لتنظيم أمورها فهو يرى أن الدولة عطلت أصولها القديمة ولم تحسن التقليد . ونراه في موضع آخر من كتابه يحمل على التنظيمات الخيرية (وهي المراسيم السلطانية التي صدرت على عهد السلطان عبد المجيد سنة ١٨٥٦ على زعم أنها حركة اصلاحية أقدمت عليها

الدولة ، • فهو يرى ان الدولة العثمانية بعد صدور هذه التنظيمات اطلقت يد الولاة فى الاقاليم وتعمدت ان تختار لحكم هذه الاقاليم الولاة الذين لا يحبهم المحكومون حتى لا يتفق هؤلاء الولاة مع من ولوا عليهم ضد الدولة .

وللكواكبى رأيه المعروف فى العثمانيين فهو يحمل عليهم لأنهم هضموا حقوق العرب فى المناصب برغم أنهم يكونون ثلثى الدولة ويرى ان العثمانيين فشلوا سياسيا واداريا بسبب الاظر - الكثيرة لهم وللشعوب التى يحكمونها من اصرارهم على اتباع قوانين موحدة فى الادارة والعقوبات بالرغم من تباين الاجناس فى الدولة واختلاف طبائعها وعاداتها • وهم يتبعون السياسة المركزية مع ما فيها من الاضرار ويضعون من القوانين ما يتعارض مع اصول الشرع الاسلامى • ومن أشد الأمور التى جعلت الكواكبى ينتقد السياسة العثمانية اتباعها لسياسة الكبت والاستبداد فهو يرى ان الضغط يولد الانفجار وينتج عنه الحقد على الادارة (١) وهو يرى أن العثمانيين يديرون الدولة ادارة مداراة واسكات للمطلعين على معاييبها حذرا من أن ينفثوا ما فى الصدور فتعلم العامة حقائق الأمور العامة من اذا علموا قالوا ، واذا قالوا فعلوا وهناك الطامة الكبرى ، •

وبعد أن يعرض السيد الفراتى هذه النواحي فى سياسة الدولة العثمانية على أعضاء الجمعية يضيف اليها أسبابا أخرى شتى يرى ان لها دورها فى تدهور أمور المسلمين على عهد العثمانيين منها عدم تطابق الأخلاق بين الرعية والرعاة وعدم الاعتناء بتعليم النساء •

(١) كان انتقاد الكواكبى لسياسة الاستبداد التى اتبعتها الدولة العثمانية وأفعاله دافعا له لوضع كتاب طبائع الاستبداد على نحو ما سنتناول وذلك فيما بعد .

وكان الحزب على تعليم المرأة من أهم الأمور التي عالجها الكواكبي في الناحية الاجتماعية وجاءت دعوته سابقة على كل من جاءوا بعده يدعون لتعليم المرأة الشرقية في العصر الحديث : « ان لانحلال أخلاقنا سببا مهما آخر يتعلق بالنساء وهو تركهن جاهلات على خلاف ما كان عليه أسلافنا حيث كان يوجد في نساءنا كأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما التي أخذنا عنها نصف علوم ديننا وكمئات من الصحايبات والتابعيات راويات الحديث .. ففي ذلك حجة دافعة ترغم أنفس غيرة الذين يزعمون أن جهل النساء أحفظ لعفتهم فضلا عن أنه لا يقوم لهم برهان على ما يتوهمون حتى يصح الحكم ان العلم يدعو للفجور وان الجهل يدعو للعفة . نعم ربما كانت العالة أقدر على الفجور من الجاهلة ولكن الجاهلة أجسر عليه من العالة . ثم ضرر جهل النساء وسوء تأثيره في أخلاق البنين والبنات أمر واضح غنى عن البيان » .

ويرى الكواكبي ان أحد الأسباب الرئيسية في فشل العثمانيين في مجال السياسة هو عدم تجنسهم بجنسية رعاياهم ولما كانت غالبية هذه الرعية عربيا فانه كان الواجب على الأتراك أن يستعربوا مثلما فعل آل محمد علي وغيرهم . ويورد بعضا من الفاظ الأسباب التي يطلقها الأتراك على العرب الذين لا يقابلون ذلك سوى بجملة جمعت فوحت ، ثلاث خلقن للجور والفساد : القمل والشر والجراد .

ونراه حريصا قبل أن ينهي أعمال جمعيته على سرد شيئا من سيرة العثمانيين تجاه الدين الاسلامي والامم الاسلامية ويورد ذلك في شكل رسالة جاءت للفراشي (كاتب الجمعية) من عضوها الهندي يسرد هذا العضو على الفراشي مناقشة دارت بينه وبين صديق له من أحد أمراء المسلمين . ويروي هذا الصديق على العضو

الهندي ما فعله العثمانيون في الاسلام والمسلمين وكيف انهم
فضلوا الملك على الدين .

« وأما سلاطين « آل عثمان الفخام فاني أذكر لك نموذجا
من أعمال لهم أتوها رعاية للملك وان كانت مصادفة للدين فأقول
هذا السلطان محمد الفاتح وهو أفضل آل عثمان قد قدم الملك على
الدين فاتفق سرا مع (فرديناند) ملك (الاراغون) الاسبانيولي
ثم مع زوجته (ايزابلا) على تمكينهما من ازالة ملك بني الاحمر آخر
الدولة العربية في الاندلس . . وهذا السلطان سليم غدر بآل
العباس واستقصاهم حتى انه قتل الأمهات لأجل الاجنة وبينهما كان
هو يقتل العرب في الشرق كان الاسبانيون يحركون بقيتهم في
الاندلس . . وقد سعوا (العثمانيون) في انقراض خمسة عشر
دولة وحكومة اسلامية منها انهم أغروا واعانوا الروس على التتار
المسلمين وهولانده على الجاوة والهولنديين وتعاقبوا على تدوين اليمن
فأهلكوا الى الآن عشرات الملايين من المسلمين . . »

وقبل أن تنهى جمعية أم القرى اجتماعها أقرت قانونا بإنشاء
جمعية تعرف بجمعية تعليم الموحدين من مائة عضو منهم عشرة
عاملون وعشرة مستشارون وثمانون فخريون واشترط في الأعضاء
العاملين والمستشارين عدة صفات أهمها المقدرة على التكلم والكتابة
بالعربية . ومهمة الجمعية الا تتدخل في السياسة وانما مهمتها
تعليم القراءة والكتابة والترغيب في العلوم واصلاح اصول تعليم
اللغة العربية .

وكان الكواكبي يرى ان أحد أسباب اعراض الناس عن تعلم
اللغة العربية هو سوء الكتب الموضوعة لهذا الغرض والمحشوة
بأشياء ضعيفة على المبتدئ في تعليم هذه اللغة . وللجمعية مهمتها
في المجال الديني وهو نشر بحوث شهرية في الأمور الدينية
تستهدف تعليم المسلمين اصول دينهم الصحيح وبين السلف الصالح

وتهتم الجمعية بإعداد تلامذتها كي يكونوا مرشدين ومبعوثين في البلاد الإسلامية المختلفة . (١)

وبعد انتهاء جمعية أم القرى من اقرارها لانشاء جمعية تعليم الموحدين اتخذت عدة قرارات سرية ولم تدع من قراراتها سوى قرار واحد هو في نظرنا من أهم الامور التي نادى بها الكواكبي .

ينادى الكواكبي على لسان جمعيته بأن الجزيرة العربية وأهلها هما مناط الامل في النهضة الدينية . نفس الجزيرة العربية وهي مشرق النور الاسلامي الكعبة المعظمة التي يحج اليها المسلمون من كل فج عميق وان دين أهلها هو الدين الحنفي السلفي البعيد عن التشويش .

وبعد أن يثنى الكواكبي على عرب الجزيرة لحرصهم على الدين والحرية والاستقلال يثنى الثناء كله على العرب فلفتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف مصونة بالقرآن الكريم والعرب أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوى الحقوق واعرفهم في أصول الشورى وانسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا في الدين . فلهذه الأسباب قررت جمعية أم القرى أن تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية .

وحين يخلص الكواكبي من جمعيته التي تخيل عقدها من ممثلين للأمة الإسلامية على أن العرب هم خير من ينبغي أن يتول اليهم أمر هذا الدين والحفاظ عليه يرى ان يكون الخليفة الاسلامي عربيا قرشيا كسابق عهده في صدر الاسلام فلما خرج الامر من العرب صار الأمر الى غير أهله واعوج أمر المسلمين .

وتلك كانت أعظم ما دعا اليه الكواكبي . فهو يدعو العرب الى اليقظة وان ينهضوا ليباشروا أمور الدين الاسلامي ، وكأنه

(١) أخذ رشيد رضا بنفس الفكرة وأسس مدرسة للدعوة والارشاد سنة

١٩١٢ في القاهرة .

يريد أن يقول لهم ان هذه هي رغبة المسلمين في كل أنحاء العالم فكونوا عند حسن ظنهم ولا تتركوا أمور الدين لغيركم فالأترك قد ضيعوا الدين وأهله « أليس الترك قد تركوا الأمة أربعة قرون ولا خليفة وتركوا الدين تعبت به الأهواء ولا مرجع وتركوا المسلمين صما بكما عميا ولا مرشد » .

وقال الكواكبي أنه غير متعصب للعرب إنما يرى ما يراه كل حر مدقق يتفحص الأمر ويصل إلى العلاج ، ولا علاج إلا بأن يناط بالعرب مهمة حماية الدين الإسلامي وزعامة أمر المسلمين .

وسيجل التاريخ يذكر ان دور الكواكبي كان عظيما في نفوس ناشئة العرب قبل ثورة ١٩٠٨ وما بعدها اذ كان شباب العرب يتهافتون على كتابيه أم القرى وطبائع الاستبداد ويقبلون عليهما اقبال الظمان على الماء القراح ويتخذونهما انجيلا لنهضة العرب الاصلاحية .

الفصل السادس

الکوابی و الاستیبار

من المعروف أنه ما كاد الكواكبي يترك حلب مسقط رأسه ليستقر به المقام في مصر حتى بدأت الصحف فيها وفي مقدمتها المؤيد تنشر مقالاته التي حمل فيها على الاستبداد ودعائه . لقد آلى الكواكبي أن يكون حربا عوانا على المستبدين من حكام المسلمين وفي مقدمتهم بطبيعة الحال خليفة المسلمين أمثال السلطان عبد الحميد الثاني . فلم يعرف التاريخ الحديث عهدا شهدت فيه البلاد العربية خنقا للحريات ولا استبدادا أسوأ مما كان في عهده .

هاجم الكواكبي المستبدين وطريقتهم وفلسفتهم في الحكم وإذا كان الكواكبي قد اطلع صديقه وصفيه كامل الغزى على مشروع كتابه الذي أسماه أم القرى وأنه (الغزى) كان يعرف أنه جدير بالنشر ، فإن الكواكبي لم يطلعه على كتابه طبائع الاستبداد . يقول الغزى وبعد أن أمضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوما لم يشعر إلا وصدى مقالاته في صحف مصر ، وأخذت جريدة المؤيد تنشر له تفرقة « كتاب طبائع الاستبداد » الذي لم يطلعنا عليه مطلقا بخلاف كتاب جمعية أم القرى فقد اطلعنا عليه مرارا . ثم انه طبع الكتابين المذكورين وقام لهما في (المابين) (١) السلطاني ضجة عظيمة ،

(١) كان السلطان عبد الحميد الثاني بعد أن سرح مجلس المبعوثين سنة ١٨٧٨ وعطل العمل بالدستور قد جعل ديوانه في قصر يلدز الفخم وحشد فيسه مستشاريه ومرافقيه وهذا الديوان كان يقوم صلة الوصل بينه وبين الباب العالي =

وصدرت ارادة السلطان بمنع دخولهما الى الممالك العثمانية ، بيد
أنهما رغما عن ذلك كله وصلا الى حلب على صورة خفية وقرأناهما في
سمرنا المرة بعد المرة .

ويذكر الأستاذ ابراهيم سليم النجار فيما كتبه عن الكواكبي
أنه (الكواكبي) تعرف بالأستاذ على يوسف في مصر والسيد رشيد
رضا صاحب مجلة المنار فتمكنت بينهما روابط الصداقة والمودة
« فكنا نجتمع كل مساء في حلقتنا المعروفة في القاهرة ، (١) » .

كان هذا اللقاء يتم في مقهى سيلندوبار بالقاهرة حيث كان
يضم هذا الملتقى عددا من الأخوان السوريين الذين جاؤا الى مصر
قبل الكواكبي وبعده وكان فرارهم الى مصر من أجل العمل على
تخليص بلادهم من الحكم العثماني المستبد .

لقد استهدف الكواكبي من كتابه ، طبائع الاستبداد ومضار
الاستعباد ، أن تكون صيحة تفعل فعلها في ايقاظ النفوس وبث
الهمم وكان يوقن ان الیقظة العربية لا تتم بين يوم وليلة وانما
تحتاج الى وقت من الزمن فما على المصلحين الا أن يبدروا ليجنى من
يأتى بعدهم ثمار غرسهم . وهذا ما قصده الكواكبي من تلك الكلمة
التي وصف بها كتابه طبائع الاستبداد « وهي كلمات حق وصيحة
في واد ، ان ذهبت اليوم مع الريح ، لقد تذهب غدا بالأوتاد » .

كان الكواكبي يستهدف أن تدفع كلماته الزعماء والمصلحين
للأخذ بيد الأمة للنهوض بها يعلمونها بحالتها السيئة وانه بالإمكان
تبديلها بخير منها ، فاذا هي علمت يبتدأ فيها الشعور بالآلام
الاستبداد ، ثم يترقى هذا الشعور بطبعه من الآحاد الى العشرات . .

= (مجلس الوزراء) فسمى بالمابين اختصارا للفظ العربية ما بين السلطان والباب
العالی .

(١) مجلة الحديث سنة ١٩٤٠ العدد الخامس .

حتى يشمل أكثر الأمة وينتهى بالتحسس ويبلغ بلسان حالها الى
منزلة قول الحكيم المعري .

إذا لم تقم بالعدل فينا حكومة

فنحن على تغييرها قدراء

أى أن الكواكبي كان يؤمن أن كلماته وأن لم تفعل فعلها في
زمنه فإن الأيام كفيفة لها بأن تفعل فعلها وأن تحقق ما رماه من
ورائها ، « وهكذا ينقذف فكر الأمة في واد ظاهر الحكمة يسير
كالسيل لا يرجع حتى يبلغ منتهاه » .

وكان ما ارتآه الكواكبي وحدثت تطورات كثيرة بعد موته لكنها
بفضله . في سنة ١٩٠٨ أجبر السلطان عبد الحميد على إعادة العمل
بالدستور (١٩٠٨) فلما حاول أن ينكت بيمينه الذي أقسمه على
عدم إبطال الدستور ، انتهى الأمر بخلعه عن العرش (١٩٠٩) .
وكان للعرب في كل من الحركتين دور كبير وفضل بارز . فلما
انقلب الاتحاديون على العرب ومضوا يتبعون سياسة التتريك
تحرك الثوار العرب تارة بالمؤتمرات وأخرى بالجمعيات . ثم كانت
المشائق التي علقها جمال باشا (السفاح) إبان الحرب العالمية الأولى
لزعماء الحركة العربية ائذانا بانفجار الموقف « فلقد ظلت كلمات
عبد الغنى العزيسى وهو يصعد الى المشنقة تتردد في آذان العرب .
« بلغوا جمال باشا ان الملتقى قريب وان أبناء الرجال الذين يقتلون
اليوم سيقطعون في المستقبل بسيوفهم أعناق أبنائك الأتراك » . ان
الدول لا تبني على غير الجماجم . وان جماجمنا ستكون أساسا
لاستقلال بلادنا » .

وزادت الهوة عمقا وبعدا بين العرب والترك . وأخذ أعضاء
الجمعيات العربية ممن لم يكتشف أمرهم يتصلون بالشريف حسين

شريف مكة يتداولون معه في الأمر ويعدون العدة لثورة مقبلة تحدد الموقف . ثم كانت الثورة العربية ابان الحرب العالمية الأولى والتي أثرت على مجرى الأحداث تأثيرا كبيرا وأذنت بانقسام عرى وحدة سياسية جمعت بين العرب والأتراك في امبراطورية واحدة أكثر من ستة قرون .

كانت صيحة الكواكبي اذا حين تصدى لاستبداد الأتراك بداية صرخة كبرى في وجه الظلم والطغيان الذي شهدته البلاد العربية على عهد العثمانيين .

يبدأ الكواكبي كتابه طبائع الاستبداد بعد حمد الله والصلاة على نبيه أنه حين جاء الى مصر وجد أفكار سداة القوم فيها كما في سائر الشرق تبحث في أسباب انحطاط المسلمين وما هو الدواء . واذا كانت الأفكار قد ضلت في معرفة السبب وبالتالي في ذكر العلاج فان الكواكبي يبادر للقول ان الاستبداد آتساعى هو أصل الداء ويؤكد انه لم يذكر ذلك الا بعد بحث جاوز الثلاثين عاما ودراسة وتمحيص كادت تكلفه حياته . وانه حين جاء الى مصر نشر الأبحاث في هذا المجال في أشهر جرائدها ثم جمعها في كتاب فلما عاد من رحلته الى البلاد العربية وجد الكتاب قد نفذ في برهة قليلة فلما انتهت أسفاره (١٩٠٢) وجاء الى مصر أعاد النظر في كتابه فزاد فيه واختصر . كما يؤكد أنه لم يقصد حكومة معينة وانما قصد التنبيه الى مورد الداء الدفين في أمتة العربية عسى أن يعرف الذين قضوا نحبتهم أنهم هم المتسببون لما حل بهم ، فلا يعتبرون على الأغيار ولا على الأقدار وانما يعتبرون على الجهل وفقد الهمم والتوآكل وعسى الذين فيهم بقية رفق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات .

ويبدأ الكواكبي مقدمة كتابه بذكر أهمية بحثه هذا فليس للعرب في ماضيهم أبحاث مستقلة في السياسة على عكس الأمم

الأوربية . واذا استثنينا بعض ما كتبه ابن خلدون أو رفاعة الطهطاوى وخير الدين التونسي فإنه يمكن القول ان جهود العرب فقيرة فى هذه الناحية . ويدعو الكواكبى الى البحث فى موضوع الاستبداد ما هو وما أسبابه ثم ما اعراضه وما هو علاجه . وتلك هى العناصر الرئيسة فى كتابه .

يعرف الكواكبى الاستبداد لغويا بأنه غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النصيحة . ثم هو فى اصطلاح السياسيين تصرف فرد أو جمع فى حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة . ثم هو يقصر وصفه للاستبداد على الحكومة المطلقة العنان فعلا أو حكما التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب . وأشد مراتب الاستبداد عند الكواكبى هى حكومة الفرد المطلق الوارث للعرش القائد للجيش الحائز على سلطة دينية ويرى أن دعائم الحكم المستبد جهل الأمة وجند الحاكم وجيشه ثم يورد بعض اقوال الحكماء فى وصف الاستبداد ومن ذلك قولهم .

المستبد يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعى لمطالبته .

المستبد عدو الحق وعدو الحرية وقاتلها والحق أبو البشرية والحرية أمهم والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئا والعلماء هم أخوتهم الراشدون ..

المستبد يتجاوز الحد ما لم ير حاجزا من حديد فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفا لما أقدم على الظلم كما يقال : الاستعداد للحرب يمنع الحرب .

المستبد انسان مستعد بالطبع للشر وبالإلجاء للخير فعلى الرعية أن تعرف ماهو الخير وماهو الشر فتلجى حاكمها للخير رغم طبيعته . .

المستبد يود أن تكون رعيته كالغنم درا وطاعة وكالكلاب تذلا وتحلقا وعلى الرعية أن تكون كالخيل ان خدمت خدمت وان ضربت شربت وعليها ان تكون كالصقور لا تلاعب ولا يستأثر عليها بالصيد كله . . نعم على الرعية أن تعرف مقامها هل خلقت خادمة لحاكمها تطيعه ان عدل أو جار وخلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل أو اعتساف أم هي جاءت به لخدمتها لا ليخدمها .

وبعد أن يذكر الكواكبي أنواع الاستبداد في نظره وهي استبداد الجهل على العلم واستبداد النفس على العقل ، يذكر فضل الهجرة فرارا من الاستبداد . وكأنه يريد أن يقول لبنى قومه ان ضاقت عليكم أرضكم باستبداد السلطان عبد الحميد وتجبره فان أرض الله واسعة (ولاشك في ان اعانة الظالم تبدأ من مجرد الإقامة في أرضه .

(ما أليق بالأسير في أرض أن يتحول عنها الى حيث يملك حريته فان الكلب الطليق خير حياة من الأسد المربوط .

ويتحدث الكواكبي في الفصل الثاني من كتابه عن الاستبداد والدين ، فيفصح تستر المستبد تحت راية الدين وزعمه الغيرة عليه . ويرى ان عدم فهمنا الدين فهما صحيحا أمر يجعلنا نعين المستبد على استبداده . ونمكنه من أن يتخذ لنفسه بطاقة من خدمة الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله . ويخلص الى ان بين الاستبداد السياسي والديني مقارنة وتلازم متى وجد أحدهما في أمة جر اليها الآخر أو متى زال زال رفيقه . ولذى يرى كل المدققين السياسيين أن السياسة والدين يمشيان متكاتفين ويعتبرون ان اصلاح الدين هو أسهل وأقرب طريق للاصلاح السياسي . وجاء

الاسلام بعد اليهودية والنصرانية هادما للشرك واضعا لأسس الحرية السياسية وكان الحكم على عهد الخلفاء الراشدين الذين فهموا معنى ومغزى القرآن الكريم حكما قائما على المساواة والمشورة .

ساوى الخلفاء الراشدون بين انفسهم وبين فقراء الأمة فى نعيم الحياة وشظفها . كما اتسم حكمهم بالمشورة التى دعا اليها كتاب الله الحكيم . فالقرآن ملىء بالآيات التى تमित الاستبداد فى الرأى « يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » وقال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ؟ قالوا ارجه واخاه وارسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم : « وشاورهم فى الأمر » ويقول الكواكبي :

ولولا حلم الله لخسف الأرض بالعرب حيث ارسل لهم رسولا من انفسهم اسس لهم أفضل حكومة أسست فى الناس جعل قاعدتها قوله صلى الله عليه وسلم كلکم راع وكلکم مسئول عن رعية أى كل منكم سلطان عام ومسئول عن الأمة فجاء من المنافقين من حرف المعنى عن ظاهره وعموميته الى أن المسلم راع على عائلته ومسئول عنها فقط وكأن المسلمين لم يسمعوا قول النبى عليه السلام : الناس سواسية كاسنان المشط لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى . ومن هذه الأقوال السابقة يرى الكواكبي ان الدين الاسلامى هو دين العدل والمساواة والقسط والاخاء جعل اصول الحكم الشورى والاريسستوقراطية أى شورى اهل الجل والعقد وجعل اصول ادارة الأمة التشريع الديموقراطى أى الاشتراكى .

ثم جاء من المسلمين من أخذوا من ليس فى دينهم فاقتبسوا التعظيم وطاعة الكبراء وحاكوا مظاهر القديس وقلدوا رجال الكهنوت فى مراتبهم وتميزهم فى البستهم وشعورهم . وبذلك فتحوا الباب للاستبداد وهينوا الطريق للاستعباد .

ثم ينتقل الكواكبي الى قسم أو فصل آخر من كتابه بعنوان :
الاستبصار والعلم :

يحسن الكواكبي ويجيد الاجادة كلها حين يصف المستبصر
وسلوكه مع أمته التي هم قيم عليها : ما أشبه المستبصر في نسبه
الى رعيته بالوصي الحائن القوي يتصرف في أموال الأيتام وأنفسهم
كما يهوى ما داموا ضعافا قاصرين ، فكما أنه ليس من صالح
الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم ، كذلك ليس من غرض المستبصر أن
تتنور الرعية بالعلم .

ثم يعرف العلم بأنه « قبسة من نور الله وقد خلق الله النور
كشافا مبصرا ولادا للحرارة والقوة ، وجعل العلم مثله وضاحا
للخير فضاحا للشر يولد في النفوس حرارة وفي الرعوس شهامة .
العلم نور والظلم ظلام ومن طبيعة النور تبديد الظلام » .

المستبصر اذا في رأى الكواكبي للعلم بالمرصاد يحاربه ويتصدى
له ، واهم ما يخشاه المستبصر علوم الحياة مثل الحكمة النظرية
والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع والتاريخ والسياسة
ونحو ذلك من العلوم التي تعرف الانسان حقوقه . والمستبصر وهو
يخشى هذه العلوم يخاف من اصحابها العلماء العاملين الراشدين
المرشدين لا من العلماء المنافقين .

وكأنى بالكواكبي يريد ان يقول للعلماء على عهد السلطان
عبد الحميد : لقد آندس في صفوفكم الكثير من المنافقين الذين
تملقوا السلطان فأصبح لا يخشاهم ولا يخاف بأسهم ، هم يتملقونه
بما يخلعوناه عليه من ألقاب وهو يقابل ذلك بانعاماته عليهم (١) .

(١) سبق أن اشار لذلك الكواكبي في كتابه أم القرى .

والمستببد لا ترتاح نفسه لأن يرى وجه عالم عاقل وانما يختار الغبي المتصاغر المتملق .

وما أصدق الكواكبي حين يقول ان بين الاستبداد والعلم حربا دائمة وطرازا مستتمرا ، يسعى العلماء فى تنوير العقول ويجهده المستبد فى اطفاء نورها وكلاهما يتجاذبان العوام الى طرفهما ، فالعوام هو قوت المستبد وقوته اذا اقلتوا منه بالعلم خسر كل شئ ذلك لأنهم حين يتعلمون يفهمون حقيقة الحرية والعزة والشرف فلا سبيل الى العبودية والاستبداد .

ويصف خوف المستبد من رعيته فيرى ان خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم بأسه ، لأن خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقه منهم وخوفهم ناشئ عن جهل ، وكلما زاد المستبد ظلما واعتسافا زاد من خوفه من رعيته وحتى من حاشيته ، فالحاشية مطلعة على ظواهر المستبد وخفاياه ولذا فهى أكثر الناس تعرضا لبطشه .

وهناك فرق من وجهة نظر الكواكبي بين المستبد الغربى والشرقى ، فالأول يخاف العلم لأنه يهدى الشعب الى حقيقته وحرية فى حين ان المستبد الشرقى يخاف حتى من أوهام العلم ذاته ، ويخلص الى القول ان العلم لا يناسب حتى صغار المستبدين والحاصل انه ما انتشر نور العلم فى أمة قط الا وتكسرت فيها قيود الأسر وساء مصير المستبدين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين .

ويمضى الكواكبي فى فصل جديد بعنوان الاستبداد والمجد يقدم لنا بحثا ممتعا كيف ان الاستبداد يغالب المجد فيفسده ويقيم مقامه التمجيد .

واذا كان المجد أمرا طبيعيا تتوق اليه النفوس فان التمجيد هو التقرب من المستبد فيصير الانسان مستبدا صغيرا فى كنف المستبد الأعظم والمتمجدون أعداء للعدل أعوان للظلم يمنحهم المستبد

الرتب والنياشين ليكونوا اعوانه وعيونه ، يقصد المستبد من
ايجادهم والاكثر منهم التمكن بواسطتهم ان يغزو بالامة على اضرار
نفسها تحت اسم منفعتها . والخلاصة ان المستبد يتخذ المتمجدين
سياسة لتفجير الامة باسم خدمة الدين أو حب الوطن أو توسيع
مملكة .

ويفضل الكواكبي الحياة الحرة فاذا ما استعالت كان
الاستشهاد والموت أفضل منها ويخالف ابن خلدون في رأيه القائل
بان من الخطأ اقدام البشر على الخطر اذا هدد مجدهم (١) . ومجد
اسماء بنت أبي بكر لأنها جعلت ابنها يقدم على الموت غير هيب
فقالت له وهي تودعه : ان كنت على الحق فاذهب وقاتل الحجاج
حتى تموت .

ولما كان الناس على دين ملوكهم فان الحاكم المستبد يجعل
حكومته كلها مستبدة في كل فروعها من أكبر موظف فيها الى
أصغره ، لأن الأسافل لا يهمهم طبعاً الكرامة وحسن السمعة وانما
غاية مسعاهم ان يبرهنوا لمخدومهم بأنهم على شاكلته وانصار
لدولته ، وهذه الفئة المستبدة من المستخدمين يكثر عددها ويقل
حسب شدة الاستبداد وخفته ، فكلما كان المستبد حريصاً على
العسف احتاج لزيادة جيش المتمجدين العاملين له المحافظين عليه .
فوزير المستبد هو وزير المستبد لا وزير الامة كما في الحكومات
الاستورية ، كذلك القائد يحمل سيف المستبد ليغمله في الرقاب
بامر المستبد لا بامر الامة ، بل هو يستفيد من ان تكون الامة
صاحبة أمر لما يعلم من نفسه ان الامة لا تقلد القيادة لمثله .

ويحمل الكواكبي على هؤلاء الاعوان الذين يزبنون الظلم
للمستبد ثم يبررونه للناس وفي مقدمتهم أولئك المتعاطفين باسم

(١) احمد امين - زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص ٢٥٩ .

الدين يقولون للعامة : يا بؤساء هذا قضاء من السماء لامرد له فالواجب تلقيه بالصبر والرضا . وفى مقابل هذه الروح الاستسلامية التى ييئسها هؤلاء المتقربون من السلطان ، تنهال عليهم العطايا الكبيرة والرواتب الباهظة اضعاف ما تسمح به الادارة العادلة .

ولا يريد الكواكبي لبنى قومه أن يقنطوا ويستبد بهم اليأس من مقاومة المستبد . فالمستبد عنده فرد عاجز لا حول له ولا قوة الا بالمتمجدين . والأمة أى أمة كانت ليس لها من يحك جلدتها غير ظفرها ولا يقودها الا العقلاء بالتنوير والاهداء والثبات ، ثم يقبض الله لها من بنيتها أفرادا كبار النفوس قادة أبرارا يشتركون لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم حيث يكون جهادهم ديننا واستشهادهم مثلا فهم خلقوا لذلك مثلما خلق الفاسق الفاجر لتنهالك على الشهوات والمثالب .

الاستبداد والمال :

وفى فصل جديد بعنوان الاستبداد والمال يقول الكواكبي « الاستبداد لو كان رجلا وأراد أن يحتسب وينتسب لقال : أنا الشر وأبى الظلم وأمى الاساعة وأخى القدر وأختى المسكنة وعمى الضر وخالى الذل وابنى الفقر وبنتى البطالة وعشيرتى الجهالة ووطنى الحراب ، أما دينى وشرفى وحياتى فالمال المال المال ، »

وما أظن ان تعبيرا أجمل من هذا التعبير الذى وصف به الكواكبي الاستبداد يمكن ان يحل محل هذا القول وهى الكلمات التى جمعت فوعت وأوجزت فشملت .

يرى الكواكبي انه برغم ان النظام الطبيعى فى كل الحيوانات حتى فى السمك والهوام ان النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضا فاذا بالاستبداد يحيى سنة أكل البشر فجعل الناس طعمة للظالمين المستبدين المستعمرين .

وما أجمل دعوة الكواكبي الى اشتراكية رقيقة رحيمة بالفقراء فهو بعد أن ينحى باللائمة على رجال السياسة الذين لا يفكرون في ملايين الفقراء من رعيّتهم ، كذلك يرى ان التجار الشرهين والمحتكرين يعيش الواحد منهم بمثل ما يعيش به العشرات أو الألوف من الصناع والزراع . ثم يقول : لا ! لا ! لا يطلب الفقير معاونة الغني ، انما يرجوه ألا يظلمه ، ولا يلتمس منه الرحمة ، انما يلتمس العدالة ، لا يؤمل منه الانصاف ، انما يسأله ألا يميتة في ميدان مزاحمة الحياة .

وبعد أن يشن الثناء كله على دعوة الا يحتمل تخصيص عشر الأموال للمساكين ثم ما جاء به الاسلام من أن المال هو قيمة الأعمال يدعو الى العدالة الاجتماعية فيقول :

والعدالة المطلقة تقتضي أن يؤخذ قسم من مال الأغنياء ويرد على الفقراء وقد حقق الاسلام ذلك بالزكاة ومنعه التواكل في الارتزاق فليزِم كل فرد من الأمة متى اشتد ساعده أو ملك قوت يومه أن يسعى لرزقه بنفسه كما قرر الاسلام ترك الأراضي اتزاعية ملكا لعامة الأمة يستنبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط .

وما أظن أن هناك دعوة للاشتراكية أفضل من تحقيق ذلك الذي دعا اليه الكواكبي وتمناه ، فهو يرى ان المعيشة الاشتراكية أبدع ما يتصوره العقل لكنه يتأسف ان البشر لم يبلغوا بعد من الترقى ما يكفي لتوسيعهم نظام التعاون والتضامن في المعيشة العائلية الى إدارة الأمم الكبيرة .

ويرى الكواكبي ان احراز المال محدود اذا ما اقترن بشروط ثلاث :

أولها : ان يكون احرازه من وجه حلال مقابل عمل أو في مقابل ضمان على ما تقوم بتفصيله الشرائع المدنية .

الثاني : الا يكون في حيازته تضيق على الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصنائع والعمال الضعفاء أو التغلب على المباحات مثل امتلاك الأراضي التي جعلها خالقها مرحا لكافة مخلوقاته .

وهو يثنى كل الثناء على تحديد الملكية فيشير الى ما اتبعته حكومة الصين على عهد هين منعت ان يمتلك الشخص الواحد أكثر من مقدار معين من الأرض نحو خمسة أفدنة مصرية .

أما الشرط الثالث الذي يرى الكواكبي ضرورة توفره لاحراز المال الا يكون على نحو يتجاوز قدر الحاجة بكثير لأن افراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة .

ويخلص من ذلك الى ان احرار المال لا يتوفر فيه هذه الشروط في عهد الحكومات المستبدة حيث يسهل فيها تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال وبالتعدي على الحقوق العامة وبغصب مافي أيدي الضعفاء .

والأغنياء - في نظر الكواكبي - أعوان المستبد وأوتاده وهم ربائطه يذلهم ويستندروهم أما الفقراء فان المستبد يخافهم خوف النعجة من الذئب .

والكواكبي يخشى أن يفسر قوله بالتزهيد في المال أنه يشبط عن كسبه انما يقصد الا يتجاوز كسبه الطرائق الطبيعية الشريفة . ويفرق بين الاستبداد في الحكومات الغربية والشرقية . وهو يرى في الاستبداد الغربي بعض جوانب الرحمة واللين بعكس الاستبداد الشرقي فانه أكثر ازعاجا من الغربي وعادة ما يخلف الاستبداد

الغربي حكومة عادلة بعكس المستبد في الشرق فانه اذا ما انتهى حكمه عادة ما يخلفه مستبد اسوء منه .

ويخلص الى القول ان الاستبداد أشد وطأة من الوباء أكثر هولا من الحريق أعظم تخريبا من السيل ، اذل للنفوس من السؤال داء اذا نزل بقوم سمعت ارواحهم هاتف السماء ينادى القضاء القضاء والأرض تناجي ربها بكشف البلاء . الاستبداد عهد أشقى الناس فيه العقلاء والأغنياء وأسعدهم الجهلاء والفقراء بل أسعدهم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسداهم الأحياء .

وينتقل الكواكبي من حديث الاستبداد والمال الى فصل آخر بعنوان :

الاستبداد والأخلاق ونظريته التي تبناها في هذا المجال هي ان الاستبداد يفسد الأخلاق ويدفع الى الحق ويضعف حب الوطن لأن الفرد غدا آمن فيه يود لو انتقل منه ويضعف من حبه لأسرته لأنه لا يطمئن على دوام علاقته معها .

ويمضي الكواكبي يوضح ان أسوء آثار الاستبداد هي افسادها الأخلاق . فالأخلاق عنده « ثمار بذرها الوراثة وتربتها التربية وسقيها العلم والقائمون عليها هم رجال الحكومة » .

وأقل ما يؤثره الاستبداد في أخلاق الناس أنه يرغم حتى الأخيار منهم الى على ألفة الرياء والنفاق فيفقدون الثقة في أنفسهم وفي غيرهم . ويرى الكواكبي ان الأبحاث كثرت في الآونة الأخيرة في شأن داء الشرق فمن قائل ان سببه فقد التمسك بالدين وآخر يقول ان سببه الجهل وهو يرى ان السبب الأول والهام هو الاستبداد الذي أفسد الأخلاق .

وقد كانت مهمة الأنبياء عليهم السلام في انقاذ الأمم هي انقاذها من فساد الأخلاق بفك العقول من تعظيم غير الله والاذعان

لسواه وتبعهم في ذلك الحكماء السياسيون الأقدمون فحرروا الضمائر واتبعوا طريق التربية والتهذيب . ثم يقارن بين أخلاق الشرقي والغربي ويرى في أخلاق الشرقيين وعاءا يهم الاجتماعية كثيرا من الأمور التي تحتاج إلى علاج . « قد يفضل في الافراديات الشرقي على الغربي وفي الاجتماعيات يفضل الغربي على الشرقي مطلقا . . الغربي يعتبر نفسه مالكا لجزء مشاع من وطنه ، والشرقي يعتبر نفسه وأولاده وما في يديه ملكا لأميره . الغربي له على أميره حقوق وليس عليه حقوق ، والشرقي عليه حقوق وليس له حقوق . الغربيون يضعون قانونا لأميرهم يسرى عليه والشرقيون يسرون على قانون مشيئة أمرائهم . الغربيون قضاؤهم وقدرهم من الله والشرقيون قضاؤهم وقدرهم ما يصدر من بين شفتي المستعبدين .

ويرى الكواكبي أنه ما أحوجنا إلى أن ننبذ الكسل والهزل ونفقد العزم على الجد والعمل « فلا يكون الشرقي ابن الماضي والخيال بل ابن المستقبل والجد » .

ويتبع الكواكبي الحديث عن الأخلاق بالحديث عن الاستبداد والتربية في قسم مستقل من كتابه .

الاستبداد عنده يؤثر على الأجسام فيسقمها وعلى الأخلاق فيفسدها ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم . من أجل هذا فإن ماتبنية التربية يهدمه الاستبداد . ونلمس من هذا البحث آراء سبق بها الكواكبي غيره كمصلح اجتماعي . هو يرى أن التربية ملكة تحصل بالتعليم والتموين والقدرة والاقتباس وأهم أصولها وجود المربين وأهم فروعها وجود الدين . والاستبداد مفسد للدين في أهم قسميه أي الأخلاق . . وفي رأيه أن العبارات صارت في الأمم المستعبدة عبارة عن عبارات مجردة وعادات لا تفيد في تطهير النفوس شيئا ومن أجل هذا يخافها المستبد .

والحكومات العادلة تعنى بتربية النسل منذ الصغر فيعيش
سعيدا ينعم بالحرية والعدالة تشيئا على العمل بياض نهاره وعلى
الفكر سواد ليله فيكون ناعم البال .

واذا كانت هذه حياة الناس في ظل الحكومات العادلة ، فان
الحكومات المستبدة تبعث الحيرة وتميت الآمال وتفسد التربية ،
فالناس يضطرون في ظل الاستبداد الى استباحة الكذب والتحايل
والخداع والنفاق والتذلل ونبد الجذ وترك العمل ، وكل حقوق
الانسان في عهد الحكومات المستبدة غير مأمونه أو مصانة بما فيها
الدفاع عن العرض ، لا يجد الناس في ظلها صحة ولا علما ولا غذاء
فهم يألون الشقاء والفقر ولا يستعطفون في مطالبتهم بحقوقهم كأنهم
طلاب صدقة .

ويخلص الكواكبي الى ان التربية السليمة غير مقصودة
ولا مقدورة في ظلال الاستبداد واذا فسدت التربية فسد الأفراد
وفسدت الأمة والسبيل للإصلاح هو القضاء على الاستبداد أولا ثم
بعد ذلك تكون العناية بالتربية .

ثم ينتقل الكواكبي في فصل آخر للحديث عن الاستبداد
والترقي .

فمن رأيه ان الترقى على أنواع منه الترقى بالجسم صحيا ،
الترقى علما ومالا أو ترقية النفس بحثها على الحصال والمفاخر
الحميدة وأرقى أنواع الترقى هو من يسعى الى ترقية الانسانية
جمعاء .

والانسان من وجهة نظر الكواكبي لا يزال يسعى الى الرقى
ما لم يعترضه مانع يسلب إرادته ، وهذا المانع اما القدر المحتوم
أو الاستبداد المشنوم « على ان القدر قد يصدم سير الترقى لمحة
ثم يطلقه فيكر راقيا . أما الاستبداد فانه يقلب السير من الترقى
الى الانحطاط ، من التقدم الى التأخر ، من النماء الى الفناء ، ويلزم

الأمة ملازمة الغريم الشتيح ويفعل فيها دهرًا طويلًا أفعاله التي تبلغ بالأمة حطة العجماوات فلا يهمها غير حفظ حياتها الحيوانية فقط ، بل قد تبيع حياتها هذه الدنيئة أيضا للاستبداد أباحة ظاهرة أو خفية .

وهو يرى أن مهمة الحكماء كانت رفع الضغط عن العقول لينطلق سبيلها في النمو . ونلمس في هذا الفصل بحثًا ممتازًا للكواكبي عن الدين الإسلامي وكيف أنه جاء على أساس أن يكون الإيمان مبنيا على العقل ، فيرفع عن العقول كل الاوهام والخيالات والخوف .

ثم يخاطب الكواكبي قومه محاولا إيقاظهم وإرشادهم إلى أنهم خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر على الذل والانحطاط . فيذكرهم وينساجيهم ويحرك قلوبهم بأقوال تنبض كلها حماسا وتشع من كلماتها نور الهداية لأنها صادرة من قلب مؤمن غيور على أهله حريص عليهم يتألم لألمهم لأنهم قومه وبنو وطنه :

يا قوم ، هداكم الله ، إلى متى هذا الشقاء المديد والناس في نعيم مقيم وعز كريم ، أفلا تنظرون ؟ وما هذا التأخر وقد سبقتم الأقوام ألوف المراحل حتى صار ما بعدكم وراء أفلا تتبعون ؟ وما هذا الانخفاض والناس في أوج الرفعة أفلا تغارون ؟ .

يا قوم ، وقاكم الله من الشر ، أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرف القدوة مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل ، وبداء الحرص على كل عتيق كأنكم خلقتكم للماضي لا للحاضر تشكون حاضركم وتسخطون عليه ، ومن لي أن تدركوا أن حاضركم نتيجة ماضيكم ، ومع ذلك أراكم تقلدون أجدادكم في الوسوس والحرافات والأمور السافلات فقط ، ولا تقلدونهم في محامدهم ، أين الدين ؟ أين التربية ؟ أين الاحساس ؟ أين الغيرة ؟ أين الجسارة ؟ أين

الثبات ؟ أين الرابطة ؟ أين المنعة ؟ أين الشهامة ؟ أين النخوة ؟
أين الفضيلة ؟ أين المساواة ؟ هل تسمعون أم أنتم صم لاهون ؟

ويمضى الكواكبي مخاطباً قومه بأسلوب أدبي بليغ كله
حماسة وكل كلمة منه لا تصلح سواها لتعبيره . وأهم ما استحدثه
الكواكبي أنه نبذ الأسلوب المتكلف المصطنع والسجع المطرد فخرج
من مستلزمات البيان القديم في الحرص على السجع الى سهولة
التعبير وعدم التكلف في العبارة . وبعد أن يستعيد بالله من قومه
أن يكون قد مسهم فساد الرأي وضياع الحزم وفقد الثقة بالنفس
وترك الإرادة للغير يدعو لهم بالشفاء مما هم فيه قبل ألا ينفع انذار
ولا لوم فاذا ما حل القضاء فلا يبقى غير الندب والبكاء . ثم يدعو
قومه لعدم التصاغر .

« ماذا ترجون من تقبيل الأذيال والأعتاب وخفض الصوت
ونكس الرأس . اليس منشأ هذا الصغار كله هو ضعف ثقتكم
بأنفسكم .. »

يا قوم جعلكم الله من المهتدين ، إكان أجدادكم لا يتمنون إلا
ركوعاً لله ، وأنتم تسجدون لتقيل أرجل المنعمين ولو بلقمة
مغموسة بدم الأخوان ، وأجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستوين
أعزاء ، وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء ..

يا قوم الهمكم الله الرشيد ، متى تستقيم قاماتكم وترتفع من
الأرض الى السماء أنظاركم ، وتميل الى تعالى نفوسكم ، فيشعر
أحدكم بوجوده في الوجود ، فيعرف معنى الانانية ليستقل بذاته
في ذاته ، ويملك إرادته واختياره ويشق بنفسه وربّه ، لا يتكل على
أحد من خلق الله اتكال الناقص في الخلق على الكامل فيه ، أو
اتكال الغاصب على مال الغافل ، أو الكل على سعي العامل ، بل
يرى أحدكم نفسه انساناً كريماً يعتمد على الميادلة والتعاوض

فيسلف ثم يستوفى ويستدين على أن يفى ، بل ينظر فى نفسه أنه هو الأمة وحده .

ويدعو الكواكبي قومه أن يشوروا على الظلم وألا يستكينوا له . ولعله يريد أن يقول لهم إن الأتراك العثمانيين لم يسوموكم سوء العذاب إلا لأنكم استحيبتهم الحياة على الموت ، فهو يرى أن بعض ضعاف النفوس هربت من الموت الى الموت وأنهم لو اهتمدوا الى السبيل لعلموا ان الهرب من الموت موت ، وطلب الموت حياة . والعزة عند الكواكبي ألا يضمن بنى قومه على الحفاظ على حريتهم بروحهم ودمهم « ان الحرية هي شجرة الخلد وسقيها قطرات من الدم الأحمر المسفوح » . ولو كثرت نفوسكم لتفاخرتم بتزيين صدوركم بورد الجروح لا بوسامات الظالمين .

وينص الكواكبي فى كتاب طبائع الاستبداد يوجه كثيرا من الكلمات الحماسية فنجده يخاطب المسلمين فيردد بعض الافكار التى تناولها فى كتاب أم أقرى من حيث ان جرثومة داء المسلمين هو خروجهم عن دينهم ، دين الفطرة والحكمة ، دين النظام والنشاط . فأصبح الدين مشوشا فيه الكثير من البدع والتشديد ومصدر ذلك هم العلماء المنافقون . ويشرح معنى كلمة لا إله الا الله وهى التى ينبغى أن تدفع بقاتلها الى التصدى لكل ظالم وألا يؤله الا الله رب العالمين .

وما أجمل دعوة الكواكبي الى اخوانه العرب غير المسلمين حين يدعوهم الى تناسى الاساءات والاحقاد وكانت فتنة سنة ١٨٦٠ التى شبت فى لبنان وامتد أوارها الى سوريا حيث وقع الاقتتال بين المسلمين من الدروز والمسيحيين من الموارنة وراح ضحيتها آلاف الارواح وازهقت الكثير من الأنفس . ولقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك ان القوى الاجنبية كانت من وراء تلك الفتنة تغذيها

وتشجعها • فالكواكبي يدعو اخوانه المسيحيين أن يذكروا جيدا تلك القوى الاجنبية التي تريد أن تصطاد في الماء العكر ويقول لهم: يا قوم وأعنى بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين ، أدعوكم الى تناسي الاساءات والاحقاد ، وما جناه الآباء والأجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين ، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون • فهذه أمم أوشرى وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الدينى والوفاق الجنسى دون المذهبي والارتباط السياسى دون الادارى • فما بالنا نحن لا نفكر فى أن نتبع احدى تلك الطرائق أو شبيهها • فيقول عقلاؤنا لمثيرى الشحنة من الأعجام والأجانب : دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا ، نتفاهم بالفصحاء ، ونتراحم بالاخاء ، ونتواسى فى العزاء ، ونتساوى فى السراء • دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم فى الاخرى فقط • دعونا نجتمع على كلمات سواء الا وهى : فلتحى الامة فليحى الوطن ، فلتحى طلقاء أعزاء • ،

وفى هذا القول ما يؤكد ما سبق أن قلناه فى فصل سابق من ان الكواكبي سبق غيره من الكتاب فى الدعوة الى الوحدة الوطنية فقد كان أول كاتب قومى اتضحت عنده معالم الفكرة القومية ولم تختلط عنده هذه الفكرة بالفكرة الاسلامية أو غيرها على نحو ما يراه بعض المؤرخين •

يخذر الكواكبي أبناء أمتة العربية من الاستعمار الاوربى ، فهؤلاء المستعمرون لا يخرجون عن كونهم تجار يأخذون فساتل الشرق ليغرسوها فى بلادهم وهم (المستعمرون) ينهبون ثروات البلد المحتل ، ويستغلون خيراته فى الوقت الذى يقتلون فى أنبائه روح العزة والاقدام ، يشبطون فيهم الهمة ويبشون فيهم التخاذل والتواكل والضعف والاستسلام •

ثم يتناول الكواكبي قضية هامة وهي أن المستعمرين يحولون بين أبناء الشعوب المستعمرة وبين العلم ، ذلك أن العلم يحيى موات النفوس ويبعث الهمة ويقوى العزيمة ، فيقترون بطلبه طلب الحرية ، ومن ثم ناصبه المستعمرون العداء . فالشعوب الجاهلة أسلس قيادا وأكثر استسلاما ، وأضعف عزيمة ، وأقل همة ونشاطا .

كذلك يقف الاستعمار للغة القومية بالمرصاد يرى في اضعافها والقضاء عليها بداية الطريق لفرض نفوذه ولغته .

والحقيقة أن شواهد التاريخ كثيرة على ذلك ، وأن ما فعله المستعمر الفرنسي في الجزائر خير شاهد وأصدق دليل . فقد جاء في أحد التعليمات التي صدرت في أوائل أيام الاحتلال الفرنسي للجزائر ، ما كتبه مسئول فرنسي حيث قال : ان اىالة الجزائر لن تصبح فرنسية الا عند ما تصبح لغتنا هناك لغة قومية .

وفي تقرير رسمى وضع من جانب الفرنسيين سنة ١٨٤٩ مايلي : « لا ننسى أن لغتنا هي اللغة الحاكمة ، فان قضاءنا المدنى والجنائى والعقابى يجب أن يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون فى ساحته بهذه اللغة . وبهذه اللغة يجب أن تصدر بأعظم ما يمكن من السرعة جميع البلاغات الرسمية .. وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا ، فان أهم الأمور التى يجب أن نعتنى بها قبل كل شئ ، هو السعى وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم اليها ، وتمثيلهم عندنا ، وادماجهم فينا وجعلهم فرنسيين » .

ويرى الكواكبي أن الاستعمار يقف للغتنا العربية بالمرصاد . « دخل الفرنسيون الجزائر منذ سبعين عاما ولم يسمحوا بعد لأهلها بجريدة واحدة تقرأ » .

والشرق مهد الحضارات ومهبط الأديان فلماذا استبدله
الغرب ؟ هذا ما يشيره الكواكبي في بحثه بعد ذلك وفي كلماته
التي وجهها لبني قومه من الشرقيين .

« وأنت أيها الشرق الفخيم رعاك الله . ماذا دهاك ؟ ماذا
أقطعك عن مسراك . أليست أرضك تلك الأرض ذات الجنان والأفنان
ومنبت العلم والعرفان . وسماؤك تلك السماء مصدر الأنوار
ومهبط الحكمة والأديان . وهواؤك ذاك النسيم العدل ، لا العواصف
والضباب . وماؤك ذاك العذب الغدق ، لا التكر ولا الأجاج ؟ ،
رعاك الله يا شرق ماذا أصابك فأخل نظامك ، والدهر ذاك
الدهر ما غير وضعك ولا بدل شرعه فيك ؟ ألم تزل مناطك
هي المعتدلة ، وبنوك هم الفائقون فطرة وعددا ؟ أليس نظام الله
فيك على عهد الأول ، ورابطة الأديان في بنيك محكمة قوية ،
مؤسسة على عبادة انصانع الوازع . أليست معرفة المنعم حقيقة
راحة أشرفت فيك شمسها ، أيدت بها عز النفس ، وأحكمت بها
حب الوطن وحب الجنس ؟ »

وبعد أن يبحث الكواكبي في أسباب تدهور الشرق وتفوق
الغرب علما فنظاما ففوة ، يرجع ذلك الى أن سببه الاستبداد .
ويوصي الناشئين بعشر وصايا يدعوهم الى حفظها عن ظهر قلب
والعمل بها وهي :

- ١ - ديني ما أظهر ولا أخفي .
- ٢ - أكون حيث يكون الحق ولا أبالي .
- ٣ - أنا حر وسأمت حرا .
- ٤ - أنا مستقل لا أتكل على غير نفسي وعقلي .
- ٥ - أنا انسان الجدد والاستقبال لا انسان الماضي والحكايات .
- ٦ - نفسي ومنفعتي قبل كل شيء .

- ٧ - الحياة كلها تعب لذيق .
- ٨ - الوقت غال عزيز .
- ٩ - الشرف فى العلم فقط .
- ١٠ - أخاف الله لا سواه .

وينتقل الكواكبى بعد ذلك الى بحثه الأخير فى كتابه « طبائع الاستبداد » وقد جعله بعنوان الاستبداد والتخلص منه .

يستعرض فى هذا الفصل حياة الانسان على هذه الارض وأنظمة الحكم على هذه البسيطة التى لم يهتد الناس بعد الى طريقة مثالية بشأنها ثم يطرح على بساط البحث عددا من المسائل ما هى الأمة - ما هى الحكومة ثم ما هى الحقوق العامة وتوزيع الضرائب والاعداد للدفاع ومراقبة الحكومة ورعاية الأمن ثم ما هو القانون وكيف نفرق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم وفى آخر هذه الابحاث التى يبلغ عددها خمسا وعشرين يبحث فى كيفية رفع الاستبداد .

والكواكبى فى طرحه لهذه المباحث على بساط المناقشة يأتى بأسئلة مبسطة تجعل القارئ يلقى الجواب الصحيح تلقائيا .
فيقول مثلا :

ما هى الحكومة ؟ هل هى سلطة امتلاك فرد لجمع يتصرف فى رقابهم ويتمتع بأعمالهم ويفعل فيهم بإرادته ما يشاء ، أم هى وكالة تقام بإرادة الأمة لأجل ادارة شئونها المشتركة العامة ؛

وفى مبحث مراقبة الحكومة : هل تكون الحكومة لا تسأل عما تفعل أم يكون للأمة حق السيطرة عليها لان الشأن شأنها ، فلها أن تنيب عنها وكلاء لهم حق الاطلاع على كل شئ وتوجب المسئولية على أى كان ؟

وفيما يختص برفع الاستبداد نجده يتساءل هل ينتظر ذلك من الحكومة أم أن ذلك مهمة عقلاء الأمة وسراتها .

ويقصد الكواكبي من هذه الأبحاث أن يذكر ذوى الألباب على حد قوله . ولعله يريد أن يردد الآية الكريمة « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » ومن الطبيعي أن نجد الكواكبي يفصل في المبحث الأخير وهو مبحث السعى في رفع الاستبداد . ويرى أن لذلك قواعد ثلاث :

- ١ - الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية .
- ٢ - الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج .
- ٣ - يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد .

ثم يتناول القاعدة الأولى في رفع الاستبداد بالدراسة فيرى أن الأمة التي يسودها الاستبداد هي أشبه ما تكون بأمة ميتة فإذا وجد فيها من تدفعه شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها فعليه أن يبيت فيها الحياة بأن يعلمها بسوء حالتها فإذا هي علمت يبتدأ فيها الشعور بآلام الاستبداد . وهو يشبه في هذه الناحية قول دعاة الحرية والذين مهدت أقوالهم لقيام الثورة الفرنسية مثل فولتير وما أثر عنه قوله ليس الاستبداد هو الذى يولد الثورة وإنما الشعور بالظلم .

ويرى الكواكبي أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة وليس معنى مهادنة هذا الاستبداد وإنما هو يرى أن يكون ذلك باقناع أفراد الأمة بمساوئه وأضراره وهو هنا يدعو للتربية والتثقيف شأنه في ذلك شأن الأستاذ الإمام محمد عبده (١) .

(١) عباس العقاد : محمد عبده ص ٢١١

ثم يرى الكواكبي انه ينبغي أن يسبق الثورة على الاستبداد
تخطيط لما ينبغي استبداله بعده حتى لا يحل محله استبداد آخر .
وما أظن أن ثورة من الثورات أهملت ذلك وقدر لها أن تنجح أو
تستمر إنها تصبح أشبه ما يكون بوميض للهب سرعان ما ينطفئ
يحرق نفسه قبل أن يحرق غيره .

ويختتم الكواكبي كتابه بأنه غير يائس من المستقبل فإن يوم
الله قريب الذي يقل فيه التفاوت في العلم وعندئذ تتكافأ القوات
بين البشر فتتحل السلطة ويرتفع التغالب ، فيسود بين الناس
العدل والتوادل فيعيشون بشرا لا شعوب وشركات لا دولا .

وهكذا يرتفع الكواكبي فوق نظرة الباحث الضيق الذي
لا يتجاوز بحثه حدود بلده أو وطنه انه يبشر بمستقبل سعيد لكل
بنى الانسان لا يظلم قويهم ضعيفهم يسودهم الاخاء والمحبة .
ولا عجب أن نجد كتابات الكواكبي وآراءه تجد لها صدى
لا فى البلاد العربية وحدها بل وفى غيرها من أنحاء العالم وستظل
لها دورها وسيستمر لها منحها حتى يرث الله الارض ومن عليها .

خاتمة

وبعد فهذه دراسة لشخصية عربية فنة جاد الزمان بها على
الامة العربية وهي أحوج ما تكون اليه ينبتها من غفلتها ويوقظها من
سباتها ويثبت فيها روح الأمل ويزيح عنها كابوس اليأس والقنوط
ويذكرها بأمجادها وهو يبني الأمل الكبير على شباب هذه الأمة
وهم طلائع الغد وأمل المستقبل . ومن أجمل عباراته يخاطب بها
الشباب قوله :

« يا قوم أريد بكم شباب اليوم رجال الغد شباب الفكر
رجال الجد أعيدكم من الخزي والنخلان بتفرقة الأديان ، وأعيدكم
من الجهل ، جهل ان الدينونة لله وهو سبحانه ولي السرائر
والضمائر ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . »

أناشدكم يا ناشئة الأوطان ، أن تعذروا هؤلاء الواهنة
الحائرة قواهم الا في السننتهم ، المعطل عملهم الا في التشبيط ،
الذين اجتمع فيهم داء الاستبداد والتواكل ، فجعلها آلة تدار ولا
تدير . وأسألكم عفوهم من العقاب والملام ، لأنهم مرضى مبتلون ،
مثقلون بالقيود ، ملجمون بالحديد ، يقضون حياة خير مافيا أنهم
آباؤكم . »

وباضح من هذه العبارات السابقة ان الكواكبي يخشى أن
تمتد عدوى القنوط واليأس من بعض رجال زمانه الى شباب هذه

الامة العربية التى كان يأمل الاصلاح والنجاة لهذه الامة على أيديهم .
فبعد أن يذكر بعض العادات السيئة التى ألفها كثير من الناس على عهده
يرجو الشبَاب أن ينشأ على غير ذلك فيقول :

نحن ألفنا الأدب مع الكبير ولو داس رقابنا • ألفنا الثبات
ثبات الأوتاد تحت المطارق • ألفنا الانقياد وثو الى المهالك • ألفنا
أن نعتبر التصاغر أدبا ، والتذلل لطفا ، والتعلق فصاحة ، والكلفة
رزانة ، وترك الحقوق سماحة ، وقبول الاهانة تواضعا ، والرضا
بالظلم طاعة ، ودعوى الاستحقاق غرورا ، والبحث عن العموميات
فضولا ، ومد النظر الى الغد أملا طويلا ، والاقدام تهورا ، والحمية
حماقة ، والشهامة شراسة ، وحرية القول وقاحة ، وحرية الفكر
كفرا ، وحب الوطن جنونا •

أما أنتم حماكم الله من السوء ، فنرجو لكم أن تنشأوا على
غير ذلك ، أن تنشأوا على التمسك بأصول الدين ، دون أوهام
المتفنين ، فتعرفوا قدر نفوسكم فى هذه الحياة فتكرمونها ،
وتعرفوا قدر أرواحكم وانها خالدة تثاب وتجزى ، وتتبعوا سنن
النبيين فلا تخافون غير الصانع الوازع العظيم • ونرجو لكم أن
تبنيوا قصور فخاركم على معالى الهمم ومكارم انشيم ، لا على عظام
نخرة ، وان تعلموا انكم خلقتم أحرارا لتموتوا كراما فاجهدوا أن
تحيوا تلكما اليومين حياة رضية ، يتسنى فيها لكل منكم أن يكون
سلطانا مستقلا فى شئونه ، لا يحكمه غير الحق ، ومدينا وفيا لقومه
لا يظن عليهم بعين أو عون ، وولدا بارا لوطنه ، لا يبخل عليه
بجزء من فكره ووقته وماله ، ومجبا للانسانية بعمل على أن خير
الناس أنفعهم للناس ، يعلم ان الحياة هى العمل ووباء العمل
القنوط ، والسعادة هى الأمل ، ووباء الأمل التردد ويفقه ان القضاء
والقدر هما عند الله ما يعلمه ويمضيه وهما عند الناس السعى
والعمل . ويوقن ان كل أثر على ظهر الارض هو من عمل اخوانه

البشر ، وكل عمل عظيم قد ابتداء به فرد ثم تعاوره غيره الى أن
كمل ، فلا يتخيل الانسان في نفسه عجزا ولا يتوقع الا خيرا
وخير اخير ثلاثا أن يعيش حرا مقلدا أو يموت » .

تلك بعض وصايا الكواكبي لشبابنا العربي وما أظن ان
شبابنا أحوج لشيء أكثر من ذلك الذي خاطبه به هذا الكاتب العربي
الكبير بل ما أظن ان المشرفين على أمور الشباب في كل قطر عربي
يوصون جيل الغد بأكثر ما نادى به الكواكبي . هو يدعوهم الى العزة
والحياة الحرة الكريمة لا يستكينون للقيم ولا يرضون الذل ، يطالبهم
بعدم التردد وعدم الاستسلام لليأس والارتكان على ان ما فيه وطنهم
هو من ارادة الله وعلينا ان نرضا والقبول . فان الله سبحانه وتعالى
اعطانا القدرة واعطانا الفكر والارادة لنعمل وقد راينا كيف ان
الكواكبي حمل كثيرا على دعاة الجبرية والقدرية وراى ان الخطر من
هذه الناحية خطر كبير وعظيم ، ذلك ان دعاة اليأس والتردد
والخذلان ينفثون سمومهم من هذه الناحية باسم الدين ، والدين منهم
براء .

أما عن بعض صفاته الجسدية فيقول السيد كامل الغزى (١)
انه (الكواكبي) كان مربوع القامة ، حنطى اللون ، مستدير الوجه ،
خفيف العارضين ، أقنى الأنف ، ذا عينين زرقاوين ، معتدل المقلة
لا غائرها ولا جاحظها ، معتدل فتحة الفم ، ازج الجاجبين واسع
الجبين ، صغير الأطراف معتدل الجسم بين السمن والهزال أسود
الشعر .

أما عن أخلاقه وسجاياه :

فقد جاء وصف الغزى لها مطابقا لأوصاف كل المعاصرين له
كان منذ حداثة سنه تلمع في محياه مخايل النجابة والشهامة وعلو

(١) مجلة الحديث العدد ٦ سنة ١٩٢٩

الجناب وحسن الطبع لا قيمة عنده للمال ، ولوع بالتفضل على أقرانه
وخلافه لا يرضى ان يسبقه بالبذل غيره يأنف من الكذب والتدليس
والغيبة والنميمة ، ويرى التلبس بهذه الحلال الذميمة دناءة وغدرا ،
وجورا في الطبع ، وكانت نفسه العزيزة عليه تأبى الخضوع لأهل
المجد الباطل ولا يرى ما يطفىء نار غضبه منهم أفضل من قهرهم
واذلالهم ، وأغرب عاطفة فيه انه كان لا يرى هدفا جديرا يصوب اليه
سهام الطعن والتنديد غير أعظم الرجال كالولاء والمتصرفين الذين
ساءت سيرتهم وقبحت أعمالهم . وكان ذلك اعتقادا من الكواكبي ان
الواجب على المصلح أن يبدأ باصلاح الرأس فاذا صلحت صلح الجسد
كله بالطبع .

وكان لا يسوءه شيء مثلما يسوءه الظلم وعدم العدل فالحالم
الجائر ينبغي أن يتصدى له كل مؤمن بالله لان ذلك أوجب الواجبات
عليه . وكثيرا ما كان يردد البيت الشهير .

إذا لم تقم بالعدل فينا حكومة فنحن على تغييرها قدراء
ونجد صفيه وصديقه المرحوم كامل الغزى يؤكد في حديثه
عن الكواكبي انه كان يقول بالطفرة ويعتقد بنجاحها اذا قرنت بالحزم
والعزم والثبات وهو يرى التدرج في نيل المطالب تضييعا للعمر ،
وافساحا لمجال حدوث ما قد يجعل المطلوب ميثوسا منه . وقد اشتهر
ذلك عن الكواكبي حتى قال أحد أصدقائه المخلصين في ولائه : أن
السيد عبد الرحمن مجموعة حماس لا عيب فيه سوى قوله بالطفرة
وسوى تلك الجرأة المفرطة الأمر الذي كدر عليه موارد الحياة وأسلمه
الى يد الاضطهاد . وقطع عليه خط الرجعة في راحته . فأمضى حياته
يتجرع المصائب يودع مصيبة ويستقبل أخرى وانطبق عليه قول
الشاعر :

وإذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرادها الأجسام

وكان الكواكبي طموحا للمعالي لا يلجأ الى الاتانة والتردد بل كان يشب الى مناطقها وثبة دون تدرج ولا تراخ في قطع المراحل الطويلة المؤدية اليها فلا يشعر الا وقد عرضت له عقبة تحول بينه وبين مقصده . ويمضي الغزى يستشهد على ذلك بأنه كان لا يطرب للتعنى ولا تميل نفسه الى مجالس اللهو والطرب ويروى ان الكواكبي قال له وهم في مجلس يتذكرون السماع وتأثيره في النفوس « هل الطرب بالغناء الاوهم وضعف مزاج واضاعة وقت فيما لا يجدى ؟ »

تلك كانت بعض اخلاق وسجايا عبد الرحمن الكواكبي . اما عن سعة علمه وقدره تحصيله في العلوم فما شك أحد من معاصريه أو ممن أرخوا له على انه بلغ في ذلك ذروة قل أن يبلغها أحد مثله .

ألم الكواكبي باللغة التركية فأجادها وعمل مترجما في عدد من الصحف يترجم مقالاتها الى العربية على نحو ما ذكرنا ويقول الغزى « سمعت مرات عديدة من المرحوم زهدى أفندى قاضى حلب يقول : ان السيد عبد الرحمن قاموس باللغة التركية وكثيرا ما كان يسأل عن بعض كلمات وتراكيب تركية شذت عن فهمه مع أنه كان من أكثر علماء الأتراك . اما عن المامه باللغة العربية وقواعدها وأصول الكتابة بها وحسن التعبير واختيار الكلمة المناسبة فما أظن ان هناك نقدا يمكن أن يناله في هذه الناحية . واشتهر عن الكواكبي سهولة الفاظه فقد خلت أو كادت من الغريب وكان يرسل عبارته فليس فيها سجع ملتزم مما يقيد حرية الكاتب وأدخل الى النشر أمورا جديدة . فقد كان النشر قبل الكواكبي لا يتناول الموضوعات الاجتماعية الا فيما ندر فاذا بالكواكبي يستعمل الأسلوب العلمى المتأدب وهو يوضح الظواهر الاجتماعية ويتناول مشكلات عصره . اما قدرته على النقد وتمحيص الحقائق واقامة البراهين وانحجج على ما يحاول اثباته أو نفيه فحدث عن ذلك ولا حرج ويذكر الغزى عنه روحه المرحة فيقول : كنا نسمر معه وعددنا يزيد على عشرة أشخاص

فيشغل كل واحد منا بموضوع يقترحه عليه ويشاكله به ، ويبين له فيه خطأه وصوابه .

وكان بارعا بفنون السياسة عالما باحوال الدول واسع الاطلاع على حقوق الدول ونهضاتها وثوراتها . ويذكر المؤرخون لحياته انه كان متضلعا بقوانين الدولة العثمانية وأنظمتها مع المام كاف بفروع الفقه ونصيب وافر من علوم اللغة العربية في النحو والصرف .

ومات عبد الرحمن الكواكبي ولكن فكره لم يمت وآراءه لم تبطل لأنها أبقى على الزمن من أن يطويها في سجل النسيان . وظلت الأيام تحملها في ريح رخاء سهل لتلقنها من جيل الى جيل من أبناء هذه الأمة تدعوهم أن يعملوا بها وأن تكون تلك الآراء دستورا لهم وشريعة ومنهجها لأنها صادرة عن قلب مخلص مؤمن بهذه الأمة أن تحيا حياة كلها عزة وسؤدد لأن الله سبحانه وتعالى قد شرفها فجعلها أمة وسطا وجعلها شاهدة على باقي الأمم يوم يرث الله الأرض ومن عليها .

فهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الفصل الأول : عصر الكواكبي	١١
الفصل الثاني : موطن الكواكبي ونشأته الاولى	٣٩
الفصل الثالث : القسم الثاني والأخير من حياة الكواكبي (الكواكبي في مصر)	٦٣
الفصل الرابع : دور الكواكبي في اليقظة العربية	٨١
الفصل الخامس : الكواكبي من خلال آثاره الخالدة (دراسة لكتابه أم القرى)	١٠١
الفصل السادس : الكواكبي والاستبداد	١٣٥
خاتمة	١٦١

الهيئة المصرية العامة للكتاب

المركز الرئيسي ١١١٧ شارع كورنيش النيل - القاهرة - ج.ع.٢ -
تليفون : ٧١٠٥٥ / ٧١٠٥٨ تليفاكس : يانثرو

المنطقة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.ع.٢ -
تليفون : ٤٧٤٣٦ / ٤٥٥٨٩

مكتبات القومية للتوزيع في ج.ع.٢

القاهرة

٣٦ شارع شريف ت : ٤٠٠١٢ ١٩ شارع ٢٦ يوليو ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عربي ت : ٤٦٣٨٣ ٢٢ شارع الجمهورية ت : ٩١٤٢٣
١٢ شارع الميادين ت : ٢١١٨٧ الباب الأخضر بالحسين ت : ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية : ٤٩ شارع سعد زغلول ٢٢٩٢٥ الجيزة : ١ ميدان الجزيرة ت : ٨٩٨٣١١
منهوت : شارع عبدالسلام الشاذل ٢١٠٥ هليسا : شارع ابن خبيب ت : ٤٤٥٤
شبرا : ميدان الساعة ٢٥٩٤ بسيوط : شارع الجمهورية ت : ٢٠٣٢
المنطقة الكبرى : ميدان المحلة ٤٢٧٧ لسوف : السوق النحاسي ت : ٢٩٣٠
التصديعة : لول شارع الثورة ٢٨٦٤

مراكز التوزيع خارج ج.ع.٢

لبنان : الشركة القومية للتوزيع - بيروت - شارع سوريا بناية أبناء صدي وحالة
مصر : الشركة القومية للتوزيع - بنسلا - ميدان التحرير - عمارة لاطة

توكيلات وعلم فاطمى خارج ج.ع.٢

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع عهد العالم بالكويت
البحرين : مكتبة المحب - عمان
ليبيا : محمود طرف التوبى - طرابلس
البحرين : عبد الله محمد الميوس - جاكوتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج - تونس
الجزائر : ٩٢ شارع مبدوش مراد بالجزائر العاصمة
البحرين : المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ٤٢ - ٤٤ شارع الملكى - الاحباس -
البحرين

مونتانا : مكتبة بريل - لندن

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة مصر

التمن. ١٠ قروش

الهبة الصرية العامة للكتاب